إرنست رينان !

فى السنين الأولى من هذا القرن كان شاب لبنانى يدعى فرح أنطون يصدر فى مصر مجلة صغيرة تسمى « الجامعة » ؛ وكانت الثقافة الغالبة على هذا الشاب فرنسية . وهو كان يكتب اللغة الفرنسية بكلمات عربية . وكان لذلك فهمه للثقافة والأسلوب والأدب يختلف عما كنا نفهمه من كتابنا المصريين البارزين الذين كانت تغلب عليهم الثقافة العربية القحة .

وقد عرفت عن طريق فرح أنطون كتاباً فرنسيين بعثوا فى نفسى استطلاعاً للثقافة الأوربية ، وغرسوا فى ذهنى شكًّا فى العقائد والعادات الشرقية ، ووصلوا بينى وبين الآداب البشرية بصلة القربى والرحم . وحببوا إلى الطبيعة ، وفتحوا عينى إلى الأجواء والآفاق ، فلا يغرب عنى

نشاط فكرى ، ولا يفصل بينى وبين كاتب قديم أو حديث فاصل من دين أو عنصر أو لغة . وقد رأيت فى حياتى كتاباً أضلهم الاستغراق العنصرى أو الدينى أو القومى وغمرتهم موجاته . ومع أن هـذه الموجات قد مستنى بطلاوتها السطحية . فإنى سرعان ما كنت أتخلص منها بل أتطهر منها .

ذلك أن فرح أنطون قد وجهنى نحو أوربا الجديدة ، أوربا البشرية ، أوربا التى كانت تسترشد بڤولتير وروسو ورينان . وما زلت أذكر طرب الحماسة الذى غمرنى حين كنت أقرأ قصة صغيرة ترجمت إلى العربية باسم « الكوخ الهندى » لمؤلفها الفرنسى برناردن دو سان بيير . فقد كان هذا المؤلف يصف سذاجة العيش وجمال الحب وروعة الطبيعة بكلمات ساحرة تترك فى النفس إحساساً دينياً نحو المرأة والشجرة والسماء والأرض . كما تفتح الذهن لمعانى القناعة والاستغناء . وكان هذا المؤلف من أولئك الذين دعوا دعوة الطبيعة مع جان جاك روسو ، وأعطوا أوربا عيوناً جديدة رأت من خلالها وعرفت بها هيئة الجبال وروعة الأشجار ، ومعنى الاصطياف على الشواطئ ، والانغماس فى الماء ، بالرجوع إلى الطفولة التى أفسدتها الحضارة ، والتى يجب ألا تفارقنا طوال أعمارنا ، فى القدرة على الاستمتاع بحيوية الحياة ولذة اللعب والنفور من تعقد العيش وارتباكات الترف المرهقة .

وهناك من لا يزالون يستصغرون قيمة الأديب العظيم فى توجيه الحضارة وتكوين الأذواق . ولهؤلاء نذكر جان جاك روسو ، فإن العالم قبله لم يكن يعرف معنى التجوال فى الحقول أو الاصطياف على الشواطئ . وهذه الحقول والشواطئ كانت مع ذلك فى مكانها كما هى الآن قبل روسو ، ولكنها كانت خالية ممن يجول فيها ويتأمل سماءها وأرضها وأشجارها أو ينغمس فى مياهها ، ولكن روسو بدعوته الحارة

إلى الطبيعة . وتقديسه لها . رد إلى الناس هذا الإحساس وبسط لهم ميادين جديدة للاستمتاع النفسى كانوا يجهلونها قبله .

وحين أجد شفيتزر يدعو إلى تقديس كل شيء حى ، وحين أجد ثورو يتساءل : لماذا لا تقرع النواقيس فى الكنائس حين تقتلع شجرة من مكانها نعياً لها وحزناً على الطبيعة المجروحة ؟ وحين أجد غاندى يترك المدن ويقنع بأن يعيش فى كوخ بين الحقول بثلاثة قروش فى اليوم ، وحين أجد الطرب البشرى يغمر سواحل الإسكندرية أو بور سعيد فى أطفال وفتيات وشبان يمرحون و«يزأطون» فى الماء والهواء وقد خلعوا مركبات المدنية وعادات العرف ، حين أجد كل هـــذا لا أتمالك أن أذكر جان جاك روسو نبى الطبيعة وأديبها ، الذى غير أذواق الناس ووجه النفوس وجهات جديدة زادت البشر سروراً واستمتاعاً وحباً .

لقد عرفت روسو ، أول ما عرفته ، بقلم فرح أنطون .

ثم عرفت أديباً آخر بقلمه أيضاً كان له أبلغ الوقع وأبعد الأثر فى ثقافتى وتربيتى . . هو إرنست رينان . وهو الذى غرس فى نفسى الروح البشرى ، وبهذا الروح أحببت تلك الشخصية السامية التى وصفها رينان فى كلمات الحب والإعزاز والتى أحاول مع العجز ، ولكن مع الأمل ، أن أرتفع إلى الأخلاق التى رسمها فى شخصية المسيح .

وقد تحطم فرح أنطون بما وقع فيه من مناقشات تاريخية مع الشيخ محمد عبده بسبب إرنست رينان . وتحطم إرنست رينان بسبب كتابه عن المسيح . ومثل هذه المعارك الأدبية تحتاج إلى الشرح الذى لا يسمح له هذا الفصل . ولكن قصارى ما أقول إن فرح أنطون نقل عن رينان اضطهاد الحكومات الإسلامية للأحرار . فرد عليه الشيخ محمد عبده بأن اضطهاد الحكومات المسيحية كان أكبر وأقسى . ودارت المساجلات

بين الاثنين ، هذا يكتب فى الجامعة وهذا يكتب فى المنازل . ولم يكن الجمهور المثقف يتحمل فى ذلك الوقت الوهج اللاسع من هذه المساجلات. وانهزم فرح ورحل إلى أمريكا كى يعود بعد ذلك إلى مصر وينغمس فى الثورة الوطنية إلى جنب سعد .

أما إرنست رينان فكان تحطمه أكبر وأبلغ . فقد ولد هذا الأديب فى عام ١٨٢٣ ومات فى عام ١٨٩٢ ، وقضى من العمر نحو أربعين أو خمسين سنة وهو يخيم على أوربا ويضىء عقولها ويربى نفوسها . وأوربا بعده غير أوربا قبله ، بفضل ما كتب وبفضل ما تألم . وقد تعلم كثيراً .

وما زلت أحس كأن سكيناً تمزق أحشائى حين أذكر أن هذا الأديب العظيم ، بعد أن حرمته الكنيسة الكاثوليكية ومنعت رعاياها من قراءة مؤلفاته . وبعد أن حطت عليه الشيخوخة حتى كادت تقعده ، بعث بخطاب إلى ناظر المدرسة الابتدائية التى كان قد تعلم فيها قبل ستين سنة يطلب منه أن يأذن له بزيارتها كى يرى الفصل الذى تعلم فيه حروف الهجاء ، والفناء الذى لعب فيه مع أقرانه ، وكى يلمس جدرانها التى تمسح بها ، ويصلى فى إحدى غرفها على اختلاء ، صلاة الحب والذكرى لهذه الأيام الماضية والتى تنفصل عن حاضره بما يشبه قرناً من الزمان .

وتسلم ناظر المدرسة الخطاب . وكانت المدرسة دينية كاثوليكية ، كما كان ناظرها راهباً يعرف أن رينان مطرود من الكنيسة وأن مؤلفاته من المحظورات . فلما قرأ الخطاب وتأمل الإحساسات الجميلة التى يحتويها كتب إلى رينان فى رقة بالغة يشكره على أنه تذكر الرهبان الذين علموه طفولته ، وتذكر الأقران من الصبيان : بل لعله تذكر صلاة الصبح التى كان يقولها فى ابتهال قبل ابتداء الدروس . ثم بعد ذلك يقول له إنه لا يستطيع أن يأذن له بزيارة المدرسة لأنه . . . لأنه كافر ، منبوذ من الكنيسة .

ولا بد أن رينان قد تضور على فرشه من ألم هذه الصدمة ، بل لايد أنه بكى ، وانهمرت دموعه وبللت هذا الخطاب .

ولكن ليست هذه هى الدموع الأولى التى انهمرت من المؤلفين الذين علموا أوربا . ولولا هذه الدموع ، ولولا هذه الآلام ، لبقيت أوربا جامدة متأخرة مثل الشرق .

نشأ رينان نشأة كنسية إذ تعلم فى مدرسة للإلهيات . ولكنه تركها وآثر دراسة اللغات والأدب . ودرس اللغات السامية وأتقن اللغة العربية ، ودرس فلسفة ابن رشد ونقلها ووضحها فى اللغة الفرنسية . وقد نقل فرح أنطون عنه هذا الكتاب تلخيصاً وترجمة تحت عنوان « ابن رشد وفلسفته ».

وأوفدت الحكومة الفرنسية فى عام ١٨٦٠ بعثة إلى فلسطين لدراسة الآثار كان هو من أعضائها ، وكانت أخته أفريت ترافقه . وعاد إلى باريس . وحاولت الحكومة الفرنسية أن تعينه أستاذاً للغات السامية ، ولكن الكنيسة اعترضت لأنه كان قد ألف كتاباً عن المسيح بعنوان «حياة يسوع» فى عام ١٨٦٣ باعتباره إنساناً لا أكثر . . .

وتتابعت مؤلفاته عن الشئون السامية ، مثل « تاريخ إسرائيل » ومثل « محاورات فلسفية » ومثل « مستقبل العلم » .

وزاره جمال الدين الأفغانى فى باريس فوصفه رينان بأنه ملحد عظيم . وهنا مجال للتفكير ومراجعة الآراء فى مصر . وقد سبق أن شرح لنا على عبد الرازق (باشا) هذا الموضوع .

ولم يكتب أحد فى سحر الأسلوب الذى كتب به رينان وضوحاً ويسراً وقد قيل عنه إنه كان يفكر كما لو كان امرأة ، ويعمل كما لو كان طفلا . وهذا أحسن أو من أحسن ما يقال عن كاتب أرصد عمره للتفكير

المثمر ، فإن المفكر العميق يجب أن يكون عميقاً أيضاً فى إحساسه . أما من حيث العمل فإن هذا ليس من شأنه ، وإنما هو شأن زوجته أو صديقه إذ ليس له وقت أو كفاءة للعمل

وكانت ثقافته تنبسط إلى الآفاق أكثر مما تسبر الأعماق . ولذلك نجد له الاشارات والإيضاحات عن العرب والإغريق واليهود والعلم والأدب ، ولكننا نجد أنه حين يتخصص لا يتعمق .

وكتابه عن حياة المسيح الذى ترجمه فرح أنطون إلى اللغة العربية فى تلخيص غير مخل ، هو جوهرة من جواهر الأدب الفرنسى بل الأدب العالمى . ومع أنه قد جرد شخصيته من الغيبيات فإنه أبرز مميزاته الأخلاقية ودعوته الانسانية بحيث إن القارئ للكتاب سواء أكان تقليدياً أم عصرياً ينتهى بالحب والاحترام إذ يجد فى المسيح جمالا وفتنة كما يجد فى دعوته تحدياً لكل رجل فى شرفه وأسلوب حياته .

ومن هنا يعد إرنست رينان من دعاة البشرية . وهو وإن لم يكن قد دعا هذه الدعوة مباشرة ومواجهة ، فإنه بمؤلفاته العديدة قد دعا إليها مداورة ومواربة . إذ هو يجمع بين الأدباء والأنبياء والفلاسفة ويضعهم جميعاً فى صف لتربية الضمير البشرى . فهو مسيحى مسلم يهودى بوذى ، وهذا هو شأن الكثيرين من أدباء عصرنا الممتازين بل كذلك هذا هو إيمان الساسة المتمازين أمثال غاندى ونهرو . . بل ماذا أقول ؟

لقد كان هذا إيمان السلطان أكبر الذى حاول أن يوجد ما أسماه « الدين الإلهى » حين عقد مؤتمراً فى الهند من المسلمين والمسيحيين واليهود والهندوكيين والبوذيين .

بل لقد كان هذا إيمان محى الدين بن عربى حين قال هذه الأبيات الخالدة :

٩٣

لقد كنت قبلى اليوم أنكر صاحبى — إذا لم يكن دينى إلى دينه دانى
وقد صار قلبى قابلا كل صورة — فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف — وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنَّى توجهت — ركائبه ، فالحب دينى وإيمانى

أجل . دين الحب . هذا هو الذى دعا إليه رينان . وهو رسالة حياته.

دستوفسكى

ذكاء العـــاطفة

كان من حظى الحسن أن هبطت على الأدباء الروس وأنا حوالى العشرين ، فارتفعت بذلك إلى مستوى من التقدير للفن القصصى جعلنى فى مستقبل عمرى أتأنق وأحجم عن قراءة تلك القصص الإنجليزية والفرنسية والأمريكية التى لا ترتفع إلى مقام المؤلفات العظيمة التى ألفها تولستوى ودستوفسكى وجوركى وجوجول وتيشهوف وترجنيف . والحق أن الانتقال من دستوفسكى الروسى إلى أرنولد بنيت الإنجليزى هو وثبة إلى الحضيض يفزع منها الإنسان . والانتقال من تولستوى إلى أى أديب آخر فى أوربا أو أمريكا هو انهيار فادح .

وأحياناً أحاول أن أعلل حبى لهؤلاء الأدباء الروس بأن الحال الاجتماعية التى وصفوها كانت تشبه حالنا فى مصر . وأن الوسط الاجتماعى

الأوربى الأمريكى كان يجرى على نظم ديمقراطية حرة لا تتيح للأوربى أن يستمرئ هذا المجتمع الروسى القديم وما حفل به من فوضى وفاقة واستسلام وركود . ولكن هذا التعليل لإحساسنا بتفوق الأدب الروسى على الآداب الغربية لا يكفى .

وقد حدث لى ما يشبه ذلك فى الموسيقا . فإنى فى مقتبل عمرى عرفت الموسيقا الأوربية الكنسية والمسرحية . فارتفع ذوقى إلى حد الكراهية ، بل العداء ، للموسيقا الشرقية الباكية الجنسية المخنثة . فلست أطيق إلى الآن أغنية أو لحناً مصريين ، بل إنى أوثر عليها « موالا » من تلك المواويل التى يغنيها فلاحوناً . فإن فيه أحياناً من الصدق والرجولة ما يبعث على الاحترام ، فى حين نشمئز من الأغانى والألحان المصرية الحاضرة لما فيها من التباكى والتخنث . ولعل ميزة أوربا علينا فى الموسيقا أنها أدخلتها الكنائس فأكسبتها شيئاً يقارب حرمة الدين ، وهذا فى الوقت الذى تركنا نحن فيه موسيقانا وأغانينا تعيش وترافق الرقص الذى كانت تمارسه البغايا . وقد كا رقصاً جنسياً مخنثاً فسقطت مكانة الموسيقا والأغانى فى نفوسنا .

* * *

ولد دستوفسكى فى عام ١٨٢٢ ومات فى عام ١٨٨١ . وكان مريضاً طوال حياته ، تنتابه نوبات من الصرع . وقد أخرج قصته الأولى « المساكين » فى عام ١٨٤٦ ووثب بها إلى مصاف الأدباء الأفذاذ ، وفى عام ١٨٤٩ ألقى القبض عليه بتهمة الاشتراك فى جمعية سياسية غير مشروعة وحكم عليه بالإعدام . ثم خفف الحكم إلى النفى إلى سيبريا حيث قضى أربع سنوات ألف عنها كتاباً بعد ذلك باسم « ذكريات من بيت الموتى » . وبعد سنوات أخرى فى الجندية والسياحة استقر على التأليف القصصى . فأخرج « الإخوة كرامازوف » وهى الأولى بين قصص العالم جميعها . وأخرج أيضاً قصة « الجريمة والعقاب » . وقد بعثنى حماستى لها

أنى فى سنة ١٩١١ ترجمت منها نصفها ثم طبعت الربع بهذا الاسم ولم أتمم الترجمة .

وتتسم قصصه بحنان ورقة يشيعان فى نفوسنا إحساس الدين . وهى جميعاً دعوة إلى الخير وحب الأطفال وحماسة الأمومة ، ولذة التضحية ، وارتفاع عن الدنايا المادية ونحو ذلك . وقد كانت حياته هو نفسه مليئة بهذه العواطف .

* * *

ولنذكر شيئاً مما وقع له ، ولعله كان لهذه التجربة القاسية أثر فى فنه .

ففى يوم ٢٢ أبريل من عام ١٨٤٩ ألقى القبض فى بطرسبورج على نحو ثلاثين شاباً كان بينهم دستوفسكى ، وكانت التهمة الخطيرة التى اتهموا بها أنهم اجتمعوا واحتفلوا بميلاد الكاتب الفرنسى فوريه .

وكان فوريه مشهوراً ببرنامج يقترحه لتغيير المجتمع . وهو حين نقرأه هذه الأيام نجد فيه سخفاً عظيماً . ذلك أنه ينص على تأليف جماعات لا تزيد إحداها على ١٦٠٠ شخص يعيشون معاً متعاونين مستقلين عن الجماعات الأخرى . وقيل إن هؤلاء الثلاثين المجتمعين فى بطرسبرج قد تآمروا على ترجمة كتاب فوريه هذا ، ومما زاد فى هذه « المؤامرة » الخطيرة أن أحد الحاضرين قرأ خطاباً من أديب يدعى بيلنسكى إلى القصصى جوجول يوبخه فيه لأنه عاد إلى الإيمان بعد الكفر .

وبعد أن قضى المتهمون سبعة أشهر فى السجن حكم عليهم بالإعدام ، ثم قضوا شهراً آخر قبل التنفيذ . وفى يوم التنفيذ نصبت أعمدة فى أكبر ميدان فى بطرسبرج ثم ألبس المتهمون جلاليب بيضاء وعلى رأس كل منهم طرطور وأخرجوا فى الصباح من يوم ٢٢ ديسمبر ، والثلج يغطى الأرض ؛ ثم حضر قسيس يحمل صليباً من الفضة ويطلب إلى كل منهم تقبيله حتى

يغفر لهم فى العالم الآخر . ووقف ستة عشر جنديًّا يحملون البنادق ، وربط كل منهم إلى العمود كى يتلقى الأعيرة النارية . ثم أمر الجنود بفتح الأزندة استعداداً لإطلاق النار .

وفى هذه اللحظة فقط أعلنوا جميعهم بأن القيصر قد استبدل بحكم الإعدام الحكم بالنفى إلى سيبريا أربع سنوات .

وبعد هذه المأساة أو المهزلة سافروا إلى سيبريا . وقبل السفر كتب دستوفسكى إلى شقيقه هذا الخطاب التالى :

« قلعة بطرس وبولس فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٤٩ .

« أخى : صديقى الحبيب : كل شىء قد تم ، وحكم على بالسجن والأشغال الشاقة أربع سنوات فى القلعة (أظنها قلعة أورنبورج) وبعد ذلك التحق بالجيش جنديًّا . وفى هذا اليوم ٢١ ديسمبر نادونا إلى مكان العرض فى سميونوف وقرءوا علينا الحكم بالإعدام . ثم أمرونا بأن نلثم الصليب ، ثم كسروا سيوفنا فوق رؤوسنا ، ثم نزعوا ملابسنا وألبسونا القمصان البيض . وبعد ذلك ربطوا ثلاثة منا إلى عمود كى يضربوا بالبنادق . وكان ترتيبى السادس ، وكان النداء على ثلاثة كل مرة . وكنت أنا بذلك فى الفرقة الثانية فلم يكن باقياً لى من الحياة سوى دقيقة ، وقد ذكرتك أيها الأخ أنت وأولادك . وفى هذه الدقيقة لم أذكر سواك يا أخى وحبيبى ، وعرفت عندئذ مقدار حبى لك . وقد تمكنت من أن أقبل بلاتسياف ودوروف . وكانا واقفين جانبى وودعتهما . وأخيراً نفخ البوق وأعلن الأمر بالرجوع ، وحل الذين كانوا قد ربطوا إلى العمود .

« ثم قرئ علينا أمر صاحب الجلالة الإمبراطورية بمنحنا حياتنا ، والحكم علينا بالأحكام الجديدة . ولم يفرج عن أحد سوى بالم الذى أرجع إلى الجيش برتبته السابقة .

« وقد أبلغت يا أخى الحبيب بأنهم سيرسلوننى اليوم أو غدا . وقد طلبت رؤيتك ، ولكنهم أخبرونى بأن هذا محال وأن كل ما يستطيعونه أن يسمحوا لى بالكتابة إليك . فأسرع وابعث لى الرد . وأنا أخشى أن يكون قد بلغك الحكم علينا بالإعدام : فقد نظرت من نافذة العربة التى حملتنا إلى ساحة الإعدام ورأيت فى الطريق جمهورًا كبيراً ، وخشيت أن يكون من رأونى قد أبلغوك وآلموك بذلك . ولكن الآن يمكنك أن تهنأ بشأنى . يا أخى . لا تظن أن الحكم قد هدنى أو غم على ، فالحياة فى كل مكان هى الحياة . هى فى داخلنا وليست فيما هو خارج عنا . وسيكون قريباً منى أناس ، وسأكون رجلا بينهم ، وأبقى كذلك إلى الأبد . ولن يهن قلبى أو تفشل عزيمتى أمام المصائب . وهذا فى اعتقادى هو الحياة أو الواجب فى الحياة . وقد حققت ذلك وصار هذا الخاطر جزءاً من لحمى ودمى . أجل ، هذا صحيح . فهذا الرأس الذى كان يبتكر ويعيش فى أسمى الحياة الفنية ، والذى حقق أسمى الحاجات الروحية واعتقادها — هذا الرأس قد قطع من عاتقى ولم يبق عندى سوى الذكريات والخيالات التى أخترعها ولكنها لم تتجسم فى بعد . وإنى لأعرف أنها ستمزقنى ، ولكن ما يزال باقياً لى قلبى وهذا اللحم والدم الذى ما يزال قادراً على الحب والألم والرغبة . ولا تنس أن هذه هى الحياة . أجل . ما زلت أرى الشمس . والآن وداعاً يا أخى ولا تحزن من أجلى .

« والآن هلم إلى الماديات . إن كتبى (باستثناء الكتاب المقدس الذى ما يزال عندى) وعدة أوراق من مخطوطاتى ، وتخطيط درامة ، وقصة (وقصة أخرى كاملة تسمى قصة طفل) قد أخذت كلها منى . والأرجح أنك ستتسلمها .

« وقد تركت معطفى وملابسى فيمكنك أن تأخذها . والآن يا أخى أظن أننى سأمشى مسافة طويلة وأحتاج إلى نقود . أخى الحبيب : إذا

تسلمت هذا الخطاب وكان يمكنك أن تحصل على قليل من النقود فأرسلها إلى بأسرع وقت . فأنا أحوج الآن إلى المال منى إلى الهواء (لغرض خاص) . وابعث لى ببضع كلمات . ثم إذا جاءت نقود من موسكو فتذكرنى ولا تنسى . وهذا كل ما أريده ، وأنا أعرف أن على ديوناً ولكن ماذا أفعل !

« قبل زوجتك وأولادك واذكرنى عندهم كثيراً ولا تجعلهم ينسوننى فعلّنا نلتقى يوماً ما . أخى ، أوصيك بالعناية بنفسك وأولادك ، وأن تعيش فى هدوء ويقظة ، وأن تفكر فى مستقبل أولادك . عش عيشاً إيجابياً . إنى ما شعرت قط بوفرة الحياة الروحية فى شخصى كما أشعر بها الآن وأنا مريض بالاسخربوط ، ولكنى لا أبالى بذلك . أخى ، لقد كابدت من الحياة الشىء الكثير حتى ما يكاد شىء يخيفنى الآن فى العالم . فليكن ما هو كائن . وسأكتب إليك فى أول فرصة ، وابعث لأسرة مايكوف بتسليمانى وتحياتى واشكر لهم اهتمامهم بحظى ، وقل بضع كلمات حارة يمليها عليك قلبك ليوجينيا بتروفنا .

« فأنا أدعو لها بالسعادة وسأذكرها على الدوام بجميلها . واضغط يد نيكولاى أبولو نوفتش أبولون مايكوف وجميع الآخرين . وابحث عن يانوفسكى واضغط يده واشكره ، وأخيراً صافح جميع أولئك الذين لم ينسونى ، وقبل أخى كوليا . واكتب خطاباً إلى أخى أندريه وأخبره بكل شىء عنى واكتب لعمى وعمتى ، وافعل ذلك باسمى . وابعث لهم تحياتى واكتب لأخواتى اللواتى أدعو لهن بالسعادة .

« وربما نلتقى يا أخى فى المستقبل . لا تهمل العناية بنفسك بل عش وابق حيّاً حتى نلتقى ثانياً ، فعلّنا نتعانق يوماً ونذكر شباننا ذلك الوقت الذهبى : ذلك الشباب وتلك الآمال التى أمزقها الآن من قلبى ودمى كى أدفنها . .

« هل يمكن حقًّا أنى لن أتناول القلم بيدى مرة أخرى ؟ أظن أنى سأعود إلى الكتابة بعد هذه السنوات الأربع وسأرسل لك كل شيء أكتبه إذا كتبت شيئاً . وا رباه ! كم من خيالات عشت فيها أو اخترعتها ستموت وتنطفئ فى دماغى ، أو تتمزق وتسير فى دمى كالسهم . أجل . إذا لم يسمح لى بالكتابة فإنى سأموت . وخير لى من ذلك أن أسجن خمس عشرة سنة ويكون فى يدى قلم .

« اكتب لى كثيراً ، واكتب بالتفصيل والإسهاب واذكر لى حقائق.. حقائق كثيرة . وفى كل خطاب اكتب لى عن شئون الأسرة مع التفصيل ومع ذكر الأشياء التافهة . ولا تنس هذا فهذه الخطابات تعيد إلى الرجاء والحياة . آه لو تعرف كيف أحيتنى وأتعستنى خطاباتك التى أرسلتها إلى وأنا فى هذه القلعة ، وقد كان الشهران والنصف شهر الماضية ، حين منعنا من كتابة الخطابات أو تسلمها : من أشق ما كابدته . وقد كنت مريضاً .

« ولما أهملت أنت إرسال النقود إلى ساورنى القلق من أجلك لأنى فهمت من عدم إرسالك للنقود أنك أنت فى حاجة شديدة . قبل الأطفال مرة أخرى ، فإن وجوههم الحلوة الصغيرة لا تغيب عن بالى . لتكن لهم السعادة ! وأنت يا أخى كن سعيداً . كن سعيداً .

« ولكن لا تحزن ، وبحبك الله لا تحزن لأجلى ، وثق أنى لم أهن وتذكر أن الرجاء لم يهجرنى ، وبعد أربع سنوات سيخفف عنى ما فعلته الأقدار وأصير جنديًّا فينقضى سجنى . وتذكر أنى سأعانقك يوماً ما . لقد كنت اليوم فى قبضة الموت ثلاثة أرباع الساعة ، وعشت هذه المدة بهذا الخاطر وبلغت آخر لحظة من الحياة . وها أنا ذا حىّ مرة أخرى .

« وإذا كان أحد يتذكرنى بسوء ، أو إذا كنت قد تشاجرت مع أحد

أو أسأت إلى أحد . فأخبره إذا لقيته بأن ينسى الإساءة وليس فى نفسى مرارة أو نقمة على أحد . وأود لو أعانق فى هذه اللحظة كل واحد من أصدقائى السالفين . وقد شعرت اليوم بالراحة وأنا أودع أحبائى الأعزاء قبل الموت . وخطر ببالى فى هذا الوقت أن خبر إعدامى سيقتلك . ولكن استرح الآن فإنى ما زلت حيًّا . وسأعيش راجيًا بأن أعانقك يوماً ما . وهذا كل شىء فى بالى الآن .

« ماذا تفعل . وبماذا فكرت اليوم . وهل عرفت شيئاً عنا ؟ وماذا كان مقدار البرد اليوم . آه ما أشوقنى إلى أن يصل خطابى هذا إليك بسرعة ؛ وإلا فإنه إذا تأخر فإنى سأبقى أربعة أشهر بدون خطاب منك . وقد رأيت الظروف التى أرسلت فيها النقود لى مدة الشهرين الماضيين وكان عنوانى مكتوباً عليها بخطك وسررت برؤية الخط .

« وعندما التفت إلى الماضى وأتذكر مقدار الوقت الذى ضن عبثاً وكم منه ضاع فى الأوهام والكسل والجهل بالعيش . وكيف أنى لم أقدر الوقت حق قدره ، وكيف جنيت على قلبى وذهنى ، أحس بأن قلبى يسيل دماً . أجل إن الحياة عطية وهى سعادة وكان من الممكن أن نجعل من كل دقيقة منها عصراً طويلا من السعادة .

« آه لو عرف الشباب . . . ! . والآن هذه حياتى تتغير وأنا أولد من جديد فى شكل آخر . أخى . أقسم لك أنى لن أفقد الأمل وسأصون روحى وقلبى فى الطهارة ، وميلادى الجديد سيكون إلى حال أحسن من حالى الماضية . وهذا كل رجا . وهذا كل عزائى .

« إن حياة السجن قد قتلت فى جسمى مطالب اللحم التى لم تكن كلها طاهرة ، ولم أكن قبل هذه الحياة أعنى بنفسى كثيراً . أما الآن فالحرمان لا قيمة له عندى ولذلك لا تخش على من المشاق المادية وتحسب

أنها ستقتلنى . كلا ؛ لن يحدث هذا .

« وداعاً . وداعاً يا أخى . إنى أعانقك بقوة وأقبلك بحرارة ، تذكرنى ولكن بلا ألم فى قلبك ؛ فأرجوك ألا تحزن . وفى الخطاب الآتى سأخبرك بما يتم لى . . وتذكر عندئذ ما أخبرتك به : لا تعش جزافاً دائماً . دبر حياتك ورتب حظك وتفكر فى أولادك ؛ آه لو أراك . وداعاً . إنى أنزع نفسى الآن من كل شىء أحببته . وهذا النزاع مؤلم . ون الموجع أن أقطع نفسى نصفين وأشق قلبى شقين . وداعاً . . وداعاً . ولكنى سأراك . أنا واثق ، واع أنا فلا تتغير ، وأحبنى ، ولا تدع ذاكرتك تبرد . . وذكرى حبك ستكون أحسن شىء فى حياتى . . ومرة أخرى وداعاً . وداعاً . وداعاً وداعاً لكم جميعاً » .

أخوك

فيدور دستوفسكى

« لما قبض علىّ أخذوا منى كتباً عدة ولم يكن بينها سوى كتابين ممنوع تداولهما . فهل لك أن تطلب الباقى لنفسك . ولكن لى طلباً ، وهو أن أحد الكتب يحتوى على مؤلفات فاليريان مايكوف . وهو مقالاته الانتقادية . وهذه النسخة كنت أخذتها من أوجينيا بتروفنا . وكانت تعدها كنزاً . وقد أقرضتها لى ، ولما قبض على طلبت من الشرطى أن يرد إليها الكتاب وأعطيته عنوانها . ولا أعرف إذا كان قد رده . اسأل عن ذلك لأنى لا أحب أن أحرمها هذه الذكرى . وأخيراً وداعاً . وداعاً » .

أخوك

ف. دستوفسكى

« على الهامش : لا أعرف هل أمشى أو أركب فرساً . وأظن أنهم سيركبون الخيول . ربما . قبل يد إميلى فيدروفنا وقبل الصغار واذكرنى عند كريافسكى . اكتب لى عن القبض عليك وحبسك والإفراج عنك »

* * *

هذا الخطاب هو جزلة حية ترشح بالدم من نفس دستوفسكى.

تمتاز قصص دستوفسكى بأن أشخاصها يتسمون بالإحساس والذكاء معاً ، فإن بطل « الجريمة والعقاب » طالب فى الجامعة يتأمل ويتفلسف ويتساءل ! لماذا لا يقتل هذه العجوز الثرية المقترة التى لا تزيد قيمة حياتها على حياة برغوث ؟ أليس هو أولى بثرواتها ينفقها فى الخير والنفع ؟

ثم يقتلها . ثم يعود إلى التأمل والفلسفة فيسلم نفسه فى النهاية إلى البوليس حيث يحاكم ويحكم عليه بالنفى إلى سيبريا . ويرضى لنفسه هذا المصير لأنه وجد شيئاً أكبر من ذكاء العقل هو ذكاء الإحساس .

وسائر قصصه على هذا الغرار ، إحساس فوق الذكاء ، وخيال فوق العقل . وقصصه تكاد جميعها تخلو من العقدة إلا القليل جداً . وفى النهاية نجد أنه يهدف إلى خيال الشعر . فهو يتناول الواقع ثم يسير به نحو آيات من الفن والشعر . وهذا هو ما يجب أن يكون . لأن القصة هى التفسير الخيالى للحياة حيث يرتفع المؤلف بالواقع إلى المثليات فيكسب هذا الواقع دلالة جديدة . فالفتاة التى تبيع عرضها كى تنقذ إخوتها من الجوع ، والسكير الفانى الذى يتعلق بالدين ولا يزال يؤمل الآمال ، والراهب الذى يحب ولكنه لا يسقط ، والشاب الذى يملأ الشرف صدره فيذهب إلى أحد الأثرياء ويعرض عليه فى غرارة وسذاجة مشروعاً للخير فلا يجد سوى الاستهزاء ، والأبله الذى يؤمن بالعلم فيرتكب

جريمة الاغتيال استناداً إلى العلم . . . وهذا يذكرنا بالبله العلماء الذين اخترعوا القنبلة الذرية !

كل هذا يقع فى قصص دستوفسكى . وهو بفرط حنانه وجمال خياله قد يناقض العقل والمنطق ، ولكن كما كان يناقضه غاندى أو تولستوى... وقد كسبت من دستوفسكى أكثر مما كسبت من غيره ، وهو ذلك الإحساس الأدبى الذى لا يختلف من الإحساس الدينى أو الموسيقى... وذلك أننا إزاء الدين والأدب والموسيقا لا « نعرف » وإنما نحس . وقد قلت فى أول هذا الفصل إن هبوطى المبكر على القصصيين الروس قد جعلنى أستصغر شأن الأدباء الأوربيين والحق أنى قرأت برنارد شو ، وولز ، وديكنز ، وأناطول فرانس ، وأندريه جيد ، وكثيراً غيرهم فكان تقديرى لهم اجتماعيًّا أكثر مما كان أدبيًّا . وقد وجدت عندهم الرأى والمعرفة أكثر مما وجدت الفن والإحساس . وعندما أتأمل هؤلاء الأدباء الروس جميعهم ، حتى مكسيم جوركى ، أجد أنهم ينشدون الدين ، فإن الإحساس الدينى البشرى فى هذا الكاتب الأخير على الرغم من إلحاده كبير جدًّا . وقد استطاع دستوفسكى وتولستوى أن يجعلا المسيحية ديناً وأدباً معاً ، بل إنهما أبرز الميزة الأصلية لهذه الديانة وهى الحب البشرى العام أكثر مما أبرزها كهنة هذه الديانة أنفسهم .

كان دستوفسكى يكره الشبان الثائرين على القيصر ، وكثيراً ما نجد فى قصصه ثائراً أو أكثر يستهزئ بأفكارهم ويسخر من عقائدهم . ولكن كراهيته لهم لم تكن تستند إلى حبه للنظام الاستبدادى الذى كان يسود حكومة القيصر ويوجهها ، وإنما كان يكره أوربا أيضاً لهذا السبب . وقد دعا إلى مقاطعة الثقافة الأوربية فى الوقت الذى كان يدعو فيه تورجنيف إلى اعتناقها .

وعندما نتعمق أقوال دستوفسكى لا نتمالك الإحساس بأنه يكره

العلوم المادية جميعها ويكره الحركات الاجتماعية الارتقائية القائمة عليها ، وأن فى نفسه شوقاً ملحاً إلى أن يعيش الناس فى إيمان بالله قانعين بكلمات الإنجيل التى يجب أن تكون الأساس الذى تبنى عليه الأخلاق .

وقد عجز دستوفسكى عن أن يفطن للحقيقة الأوربية البازغة وهى أن الأوربيين قد شرعوا منذ أوائل القرن التاسع عشر فى استبدال الرؤيا البشرية للرقى والأخلاق والدين برؤيا الكنيسة . وأن الإحساس الدينى البشرى الجديد ، على الرغم من أنه لا يزال ضعيفاً ، يجد أنصاراً أقوياء يسلكون فى حماسة وحب للبشر ويخدمون ويضحون للإنسانية .

ولكنه فطن إلى أن علماً بلا دين هو دمار بشرى عام . بل نستطيع أن نقول إنه بصر بقوة العلم الطاغية فى القنبلة الذرية التى يخرج بها طيار يشرب كأساً من الكونياك فى نزق ومجانة ثم يقتل ثمانين ألف إنسان فى ثانية ويعود ضاحكاً إلى معسكره كما حدث فى هيروشيما فى أغسطس من عام ١٩٤٥ .

بعد أن قضى دستوفسكى مدة عقوبته فى سيبريا وأفرج عنه كتب إلى السيدة ڤون ويسين خطاباً جاء فيه :

« ... ومع ذلك فإن الله يمتعنى أحياناً بلحظات من الهدوء الكامل : وفى هذه اللحظات أجد الإيمان الذى يتجلى لى فيه كل شىء فى وضوح وقداسة . وإيمانى هذا فى غاية البساطة ، وهو أنى أعتقد أنه ليس هناك ما هو أروع وأحب ، وأعقل ، وأشجع ، وأكمل ، من المسيح . وليس هذا فقط بل إنى لأقول لنفسى فى إحساس المحب الغيور إنه لا يمكن أن يكون هناك شىء . أكثر من هذا ، وهو أنه لو أن أحداً قال لى : المسيح يجافى الحق ، ولو أن هذا القول كان صحيحاً ، لآثرت البقاء مع المسيح على التزام الحق » .

وقصص دستوفسكى جميعاً تنشد الإيمان الذى يستطيع أن يستقر به الإنسان على هذه الدنيا حتى ولو كان هذا الإيمان يخالف منطق العيش وأسلوب البحث العلمى .

وقد وجد دستوفسكى حافزاً عظيماً للاعتماد على الإيمان ، هو هذا الاختبار المؤلم حين وقف أمام الجنود ينتظر إطلاق النار . فإنه بقى طوال عمره بعد ذلك ينظر إلى الحياة من موقف الموت ؛ وهو موقف جدير بأن يغير النظرة والنبرة للحياة معاً . وواضح أنه لم ينسه بتاتاً فى كل ما كتب .

وأكاد هنا أقول إن الدين ليس شيئاً آخر سوى النظر إلى الحياة من موقف الموت . فإن الموت أكبر حقيقة بشرية . وهو عندما نتأمله نجد أنه يغير القيم والأوزان ويحيلها من التقدير الاجتماعى إلى التقدير البشرى . فنحن فى هرولة الحياة الاجتماعية نتعب ونلهث لأجل الثراء أو الوجاهة أو ننساق فى أنانية بشعة لا نبالى مصالح الغير ولا نرحم من ندوسه فى سبيل الاقتناء أو التغلب . وكلنا على هذه الحال بدرجات متفاوتة ، ولكن فكرة الموت تنقدح فجأة فى أذهاننا فنقف فى طريق الحياة ونتساءل عن نهايته . وهذا وجدان أكبر الوجدان بالحياة التى تتخلص عندئذ من ملابساتها الاجتماعية . وعندئذ نحس كما أحس دستوفسكى ، بل كما يعلم ويكرر فى جميع قصصه ، إننا نحن بنو البشر كيان واحد قد تعددت أجزاؤه وانفصلت ، ولكن انفصالها لم يمنع بينها التراحم والحب والحنان . فكلنا عندئذ ، بعد تأمل الموت ، أب وأم وأخ لأبناء البشر جميعاً .

وهذا هو إحساس المسيح ، وغاندى ، وتولستوى ، بل ڤولتير وروسو وشڤيتزر . بل كل إنسان استطاع أن يقف عن هرولته الاجتماعية ويتأمل حقيقة الموت . أجل إن تأمل الموت هو كشف دينى . كأنى

ـ حين أوقن أنى فى إحدى اللحظات سأفارق هذا العالم فلا يبقى لى فيه جسم أو اسم أو ذكرى ـ لا أسأل عندئذ عن هذا الرجل هل هو باشا أو بك ؟ وثرى أو فقير؟ وهل يملك ضيعة أو أتومبيلا أو قصراً ؟ وإنما أسأل عن ميزاته الإنسانية . بل إنى لأهتم به وأتأمله كثيراً عندما أعرف أنه يحب الزهور ، ويحنو على الأطفال ، ويفرح لرؤية الشفق ، وتلتمع فى ذهنه أشعة الذكاء وشهوة الحرية ويحس قرابته للحيوان بل للنبات .

إن يقيننا بالانعدام بعد الموت يزيدنا وجداناً بالحياة . وهذا هو إحساسنا عندما نقرأ دستوفسكى ، فإن الحياة تصخب حولنا وتكاد تتجمع فى بركان تحتبس فيه العواطف ثم تنفجر .

ومع أن القارئ لقصصه يحس من وقت لآخر أن إيمانه بالله يتزعزع ، هنا وهناك ، فإن إصراره على الإيمان يتكرر فى لهجة التأكيد والغضب من المنطق العلمى وتفشى المادية الأوربية . فهل نستطيع أن نفسر ذلك بأن رهبة الموت حين وقف لتلقى النار قد حملته أيضاً على التشبث بالإيمان فراراً من معانى القلق والشك والخوف ، وجميعها من معانى الموت !

قد يكون ذلك ، ولكن هذا الإيمان قد جعل قصصه تذوب ، رحمة وحناناً وإخاء وبراً حتى لنحس ونحن نقرأها هذه الفضائل تسرى فى كياننا ، كما لو كانت بلسما ، وترفعنا فوق أنفسنا .

* * *

لا نتمالك ونحن نقرأ دستوفسكى أن نقارن بينه وبين نقيضه نيتشه . وقد عرف داعية القوة وعدو المسيحية داعية الرحمة والمسيحى الأول من إحدى قصصه . والعجب أننا على الرغم من هذا التناقض بينهما

نجد اشتراكاً فى الأسلوب الفكرى ؛ حتى لقد أحب نيتشه دستوفسكى وقال عنه : هو الإنسان الوحيد الذى علمنى شيئاً عن السيكلوجية .

وهما يشتركان فى الكراهة للحضارة العصرية ، ولكن لسببين متناقضين . فإن دستوفسكى يكره أوربا لأنها تركت الإنجيل والمسيح ، ونيتشه يكرهها لأنها اعتنقتهما . فالأخلاق العامة فى أوربا تحولت فى رأى دستوفسكى إلى أخلاق المادية العلمية والمباراة الاقتصادية والبعد عن الإخاء والرحمة . ونيتشه يكره الأخلاق الأوربية لأنها ابتعدت عن الفطرة الحيوانية واستبقت الضعفاء والعجزة والمرضى الذين يفسدون المادة البشرية ، لأنها أخلاق مسيحية !

ولكنهما يتفقان من حيث إن لكل منهما رؤيا بشرية ؛ فكلاهما حالم ؛ ولكن حلم دستوفسكى هو المسيحية العامة ، وحلم نيتشه هو تنازع البقاء . وقد قال كلاهما : إن البطولة خير من السعادة .

ولكن البطل عند دستوفسكى هو ذلك الذى يضع إحساسه البشرى فوق عقله المنطقى . والإحساس هنا هو الرحمة والحب . وكذلك نيتشه يزدرى العقل والمنطق ، ويقول بالإحساس ولكن إحساسه هنا هو أن الصقر يجب أن يأكل العصفور ولا يرحم .

لقد انتهى رسكلنيكوف فى قصة « الجريمة والعقاب » الذى قتل العجوز كى يحصل على مالها إلى أن يجحد عقله ويعود إلى إحساسه ويرضى بالتكفير عن جريمته فى سيبريا . ولو أن نيتشه كان قد ألف هذه القصة لسخر من هذه النهاية . ولكنه ، مع سخره هذا . لم يكن ليقبل قتل العجوز لأنه لم يكن داعية للفوضى ، وإنما الأغلب أنه كان يطلب نظاماً اجتماعياً منطقياً يؤدى إلى الاستغناء عن العجزة الذين انتهى نفعهم للبشر .

وحين نقرأ قصص دستوفسكى لا نتمالك أن نحس أنه يريد أن نفهم منه أن الإنسان مزيج من الخير والشر ؛ وأن فى نفس المجرم الآثم أو الشرير القارح جواهر من الشرف والبر . وهذا صحيح .

وثلاثة يمثلون العبقرية البشرية ، هم نابليون الذى يمثل عبقرية الإرادة ، وأينشتين الذى يمثل عبقرية الذهن ؛ وأخيراً دستوفسكى الذى يمثل عبقرية الإحساس .

ثورو
ونداء الطبيعة

سبق لى أن أوضحت بعض الأسباب التى تجعلنى أحب أحد المؤلفين دون الآخرين . ولكن هناك حالات من الحب تتعمق قلبى وتتغلغل فى خلايا مخى بحيث أعجز عن التحليل ، فلا أصل إلى الجذور التى تربطنى بأحد المؤلفين . وقصارى ما أقول عندئذ إنى أحبه كما أحب اللحن الموسيقى العظيم ، أو أعجب به كما أعجب بالتمثال الرائع . وأتعلق به برباط من الحنان كما لو كان هذا المؤلف أبا أو أمًّا .

فإنى أعجب بتولستوى مثلا لأنه ألف قصة خالدة رائعة تدعى « أنّا كارنينا » هى فى الذروة من الفن . ولكن حبى له لا ينبنى على هذه القصة وحدها . بل أحرى أن تبعث هذه القصة فى نفسى إعجاباً بقدرته... ولكنى لا أحبه لأنه قادر فقط وإنما لأنه ضعيف عاجز أيضاً ، قد ارتكب

أخطاء وتورط فى مشاكل لم يعرف كيف يتخلص منها . فإحساسى نحوه هو الحنان والرقة . هو عندى : بابا تولستوى ، لهذه الأخطاء والتورطات نفسها .

عاش تولستوى عيشة الفسق وهو شاب : ثم حاول أن يكون شيخاً طاهراً وأسرف فى معنى الطهارة حتى قال — وحاول أن يمارس ما كان يقول به — إن الزوج يجب ألا يتصل بزوجته إلا بغية التناسل . ولكنه أخفق ، إذ كان يصارع جسده وهو فوق السبعين . ويعود من هذا الصراع خائباً .

وقضى شبابه وهو لا يكاد يدرى أن فى هذه الدنيا أديانا يؤمن بها الناس ويجعلون منها دستور حياتهم . حتى إذا اكتهل شرع يشتغل بالدين ويحاول الإيمان ، فإذا به يتورط فى ارتباكات ذهنية وعادات سلوكية انتهت به آخر حياته إلى اثنى عشر يوماً من الضلال والدمار ، ثم الموت . .

وكان شريفاً له لقب كونت ، وعنده آلاف الأفدنة ، يستغل عشرات الفلاحين فى زراعتها . ثم انبلج له نور جديد ، فإذا به يجمع هؤلاء الفلاحين ثم يعرض عليهم أن يوزع الأرض بينهم إذ لا حق له فى استغلالهم . ويغادر الفلاحون منزله وفى نفس كل منهم شك أو شبهة فى سلامة عقله ، ثم تدرى عائلته بما جرى فى هذا الاجتماع فتكفه عن التصرف وتمنعه من التنازل عن أرضه ، وتستمر على الرغم منه فى استغلال الفلاحين .

وألف عشرات القصص الخالدة ، وكلها فن ومجد وحب . ملأت الدنيا موسيقى وأدخلت السعادة إلى قلوب الملايين من البشر . ثم يختمر فى نفسه الإيمان الجديد بأن الناس لا يحتاجون إلى الفن وإنما يحتاجون

إلى الحنان والخير والقناعة وسذاجة العيش . . . فيكف عن التأليف ويرفض أن يتناول قرشاً من أرباحه من هذه القصص .

ثم لا يكتفى بهذا بل يعمد إلى شراء الجلود ويصنع بيديه أحذية للفلاحين ؛ لأن صنع حذاء يدفئ قدم الفلاح خير من إخراج كتاب يجد فيه القارئ لذة فنية !

وتثور العائلة فى وجهه ، وتضرب عليه حصاراً حتى لا يتورط فى عمل أرعن جديد .

وكان له صديق طبيب من أولئك الرجال الذين يحابى القدر بهم بعض الناس ، فهم حب وإخلاص وتضحية . وهم سعادة لأصدقائهم ونور للعقل والقلب .

وكان تولستوى إذا جاءه هذا الصديق شهق شهقة الخلاص . فهو يستقبله ويدخله غرفته ويقفل الباب ، ويبقى الاثنان يتناجيان .

ولكن زوجة تولستوى لا تطيق كل هذا الحب ينحرف عنها من زوجها إلى هذا الطبيب فهى تغار وهى تحقد . ثم تنفجر ، فتكتب فى مذكراتها بأنها نظرت من صير القفل ؛ ولا تشك فى أن بين تولستوى وبين هذا الطبيب حباً جنسياً شاذاً . وكلا الرجلين قد أوشك على الثمانين . . . وهذا حقد الغيرة ، وعمى الغيرة ، وكفر الغيرة !

ويستقر فى ذهن تولستوى أنه قد فشل فى حياته . فلا هو استطاع أن يوزع الأرض على فلاحيه ، ولا هو استطاع أن يؤمن بالإيمان الساذج الذى كان ينشده بإحساسه . ولا هو قادر على أن يعيش العيش الساذج الذى قال به ودعا إليه . بل إن نفسه لتهفو حتى وهو فى هذا النسك إلى أن يؤلف قصة غرامية . وأنه مع دعواه بأن التناسل هو الغاية المفردة من التعارف الجنسى ليتقدم فى ذل إلى زوجته .

والدنيا حوله فى آلام : فقر وجوع ودنس وظلم. أجل ، ليس له الحق فى أن ينعم بطعام طيب أو فراش دافئ . وهو يحس أنه قد اقترب من الليل الطويل والنوم الأخير ، وأنه يجب أن يتنكر الإنكار العظيم لحياته الماضية وأن يفر من الدنيا إلى . . . إلى الله .

وكيف يفر إلى الله هذا الشيخ الذى بلغ الثانية والثمانين ؟

فى الساعة السادسة من صباح يوم ٢٨ أكتوبر من عام ١٩١٠ تأتى إليه عربته التى ينتظرها بميعاد ، ويحرص الحوذى على الصمت والسكون حتى لا يستيقظ أحد آخر ثم تسير به العربة إلى محطة السكة الحديدية ، فينزل ويجد صديقه الطبيب فى انتظاره ، ويأتى القطار فيركبان فى إحدى عربات الدرجة الثالثة .

وينزل كلاهما فى إحدى المحطات ، ويسيران إلى دير حيث تستقبلهما الراهبات .

ولكن لا تمضى أيام حتى تعرف ابنة تولستوى ، وهى فتاة فى السادسة والعشرين ، مكانه . فتذهب إليه وتدخل الدير وتقف إلى جنب والدها . ولكنه هو يحس من هذه الزيارة أن الدنيا قد شرعت تجره إليها بعد أن تركها . فهو يستيقظ فى الرابعة من الصباح ، والثلوج تكسو روسيا بأجمعها ، فيفر مرة أخرى مع ابنته والطبيب .

ويحس قشعريرة تلجئه إلى أن يرتاح فى غرفة بإحدى محطات السكك الحديدية . وبعد أيام ، بين يدى ابنته ، يموت . . . يموت موتاً عظيماً بعد أن عاش حياة عظيمة .

لقد ألف تولستوى عشرات القصص الجميلة . ولكن قصة حياته أجمل بل أخلد .

إنها كانت جهاداً شاقًّا وأخطاء متوالية فى سبيل الحق والشرف .

ونحن أعجز من أن ننهج هذ النهج فى الحياة . ولكن هذا العجز يزيدنا حبًا له . وحياته هى رؤيا دائمة . هى دعوة إلى أن نتحرى الحق ونجرب التجارب فى العيش ؛ فننفض العادات ؛ والتقاليد ؛ والعرف ؛ إذا لم نجد أنها تلائم العيش المثمر البار .

وتجارب العيش هى فى النهاية أثمن ما نطلبه من المؤلف أو المفكر ؛ ونحن ننتفع ونسترشد بحياة المؤلف كما ننتفع بمؤلفاته . بل ربما أكثر لأن حياة المؤلف هى نهج جديد للبشر .

وكثيراً ما أقارن بين حياة ڤولتير ومؤلفاته ، فأجد أن كفاحه الشخصى للتعصب الدينى قد ربى أوربا وعلمها معانى جديدة لشرف الفكر . رباها وعلمها بأكثر مما ربتها وعلمتها مؤلفاته . وكذلك الشأن فى حياة غاندى أو شفيتزر .

ذلك لأننا لسنا واثقين بأننا نعيش فى حضارتنا الراهنة الحياة الفضلى على المستوى الأرحب . ومن الحسن أن نصدم من وقت لآخر بمن يوضحون لنا الخطأ والخطل فى عيشنا الحاضر . أو على الأقل يغرسون الشك فى نفوسنا حتى لا نسرف فى عاداتنا الاجتماعية الموروثة ونتقيد بها كما لو كانت شعائر دينية . فمجتمعنا الذى نعيش فيه مثلا هو مجتمع اقتنائى يعلمنا كيف نقتنى . ويغرس فى نفوسنا عواطف الكسب والجمع والغيرة والحسد . وكثيراً ما نسير إلى أقصى حد مع هذه العواطف فنقع فى هموم هى سموم تأكل فى نفوسنا وأجسامنا معاً ، ونشقى بما نقتنى .

وقد رفض غاندى أن يعيش وفق المبادئ التى يدعو إليها هذا المجتمع فقنع من الدنيا بشملة وعنزة ، وعاش سعيداً إلى سن الثمانين تقريباً . ولعله كان يعيش أكثر لو لم يقتل . وكانت له مبادئ فى الخير والبر والإخاء والحب هى ثمرة هذا العيش الساذج . أو على الأقل كانت بعض

ثمرته . . . لأننا يجب ألا ننسى أن أسلوب عيشنا « يكيف » أفكارنا ويعين أخلاقنا إلى حد بعيد ، وأسلوب الاقتناء فى العيش يبعث الطمع والحسد ، وأسلوب القناعة فى العيش يبعث الطمأنينة .

* * *

وإنى أذكر هنا رجلا جرب تجربة فى العيش كانت إلهاماً لغاندى هو هنرى ثورو الكاتب الأمريكى . الذى كسب غاندى عنه أسلوب العيش ، كما أخذ عنه شعار الثورة الهندية على الإمبراطورية البريطانية ، وهو « العصيان المدنى » .

وقد كان هنرى ثورو يقصد من هذه العبارة إلى أننا نكون أحراراً بحيث لا يربطنا المجتمع بعاداته وأهدافه وأساليبه وقيمه ، لأن لكل منا حق الاستقلال فى تنظيم عيشه وفق مبادئه الشخصية ، حتى حين يخالف العرف المألوف . وقد خرج غاندى هذه العبارة تخريجاً آخر هو أن الهنود يجب ألا يتعاونوا مع الإنجليز .

ولد ثورو فى عام ١٨١٧ ومات فى سنة ١٨٦٢ . وقد ألف كثيراً ، ولكن ميزته أنه أدخل الطبيعة فى الأدب الأمريكى ، وأثار الوجدان لجمال الريف والغابة والطير والوحش . وكان الروح التجارى والاقتنائى فى أيامه على أشده فى الولايات المتحدة . فعمد هو إلى صده ، وترك المدينة وأقام فى الغابة . وكتابه « والدين » هو أثره العظيم الذى يذكر لنا فيه تجاربه وإحساساته عن هذه الحياة الفطرية التى عاشها .

وهو يقول عن تجربته هذه : « لقد أردت أن أعيش عن قصد ، وأن أجابه ، حقيًا ، عمق الحياة الأصلية فقط . كى أعرف ما يمكن أن تعلمنى هذه الحياة . حتى إذا قاربت الموت أكون واثقاً بأنى قد عشت ، ولم أكن أرغب فى أن أحيا بما لم يكن أصيلا فى الحياة ، لأن الحياة غالية ، كما أنى

لم أكن أقصد إلى الاعتكاف ما لم يكن هذا ضروريًّا ، إنما أردت أن أعيش فى عمق وأن أمتص مخ الحياة ، وأن أحيا فى قوة حياة إسبرطية تبعد عنى ما ليس من الحياة . وأن أدفع الحياة إلى مأزق ، وأن أصل منها إلى أن أدون ما فيها . فإذا كانت خسيسة فإنى سوف أعلن خستها للعالم . وإذا كانت سامية فإنى أريد أن أعرف هذا السمو وأجربه وأقدم عنه حساباً » .

هذا كلام جد وعمل جد . فإننا لم نقف قط هذا الموقف من الحياة . وإنما الأنبياء وحدهم الذين وقفوه وجربوه . إذ لست تجد نبيًّا إلا وله فترة من الاعتزال والاعتكاف يترك فيها المجتمع ، ويبحث فيها عن مراسيه فى الدنيا . وهو فى هذا الاعتكاف « عاص مدنى » يحاول أن يتخلص من القيم والأوزان الاجتماعية كى يصل إلى ما يقابلها من القيم والأوزان البشرية التى تعلو على العادات والعرف . والأديب المخلص فى حاجة إلى مثل هذا الاعتزال والاعتكاف من وقت لآخر .

ولكن ثورو لم يكن يريد من فراره إلى الغابة أن يعتكف للتأمل فقط ، وإنما كان يريد أن يجد ويجرب طريقة أخرى للعيش لعلها تكون أفضل من عيش المتمدنين .

لقد نشأ ثورو فى مدينة صغيرة ولكنها مع صغرها كانت تحوى جميع التأنقات التى تمتاز بها المدن ، هى مدينة كونكورد فى الولايات المتحدة . وعاش ثورو فيها واحترف التعليم ، ولكنه تركه للأدب . ولم يوفق كثيراً ، بل الحق أن شهرته فى أيامنا تزيد عشرات المرات على شهرته حين كان حيًّا يدعو دعوته الحارة إلى الطبيعة .

وإحساس ثورو للطبيعة عميق ، يدهشنا أحياناً بعمقه . انظر إليه حين يقول :

« إن الطبقة العليا من التربية التى تحتوى جذور الأعشاب تحوى من الأدوات الميكانيكية ما هو أدق من أدوات الساعة . ومع ذلك نحن ندوسها بأقدامنا . وهذه الحركة التى تجرى فى التربة فى الظلام ، وهذه الكيمياء التى تتخلل ألياف العشب قبل أن تظهر ورقة واحدة منه فوق الفتات البالى لجديرتان ، لو أننا فهمناهما ، بأعظم كشف فى الطبيعة » .

ولم يكن ثورو يدعونا إلى التخصص فى دراسة الطبيعة وإنما كان يطالبنا بأن نعيش فى الطبيعة . وهو يوضح لنا أن ارتباطنا بالمجتمع أو الحرفة أو السياسة أو الحكومة أو غير ذلك من المؤسسات الاجتماعية إنما هو شىء ثانوى إلى جانب ارتباطنا بالطبيعة ، بالأرض والجبل والنهر والشجر والحيوان والطائر . فيجب أن نعيش مع هذه الأشياء أو فيها . ثم يجب على الإنسان أن يكون قادراً على أن يعيش منفرداً متوحداً يأنس إلى الطبيعة دون الحاجة إلى مجتمع ، كما يجب أن ينشد سعادته واختبارته من الطبيعة وليس من النجاح المالى أو الاجتماعى. وهو هنا لا ينكر قيمة الصداقة بل يكبر من شأنها ، ولكنها صداقة الزمالة فى الطبيعة .

إن الإنسان الاجتماعى كائن صغير إزاء الإنسان الطبيعى . . الأول يعيش فى المدينة وهو محدود الاختبارات والآفاق ، له هموم صغيرة تستوعب نهاره بل بعض ليله . وهو يعمل جاداً متعباً كى يجمع ثروة أو يحقق غاية اجتماعية طول عمره . ولكن الإنسان الطبيعى لا يحتاج إلى أن يكد ويتعب إلا للحصول على طعامه وكسائه . أما سائر وقته فينقضى فى الالتصاق بالطبيعة . وهنا يصدمنا ثورو بقوله : لماذا يفرض علينا العمل ستة أيام فى الأسبوع ثم يوماً من الراحة ؟ أليس العكس هو الأولى ؟ . . .

وهو يعنى أننا إذا عمدنا إلى ترك التكاليف الاجتماعية الباهظة

وارتضيا بساطة العيش بين أحضان الطبيعة فإن يومًا واحداً من العمل فى الأسبوع يكفل لنا جميع حاجاتنا . أما الأيام الباقية فهى للاستمتاعات والاختبارات .

ترك ثورو مدينة كونكورد إلى بقعة نائية فى عام ١٨٤٣ . وكانت سنه وقتئذ لا تزيد على ست وعشرين سنة . وهناك بنى بنفسه كوخاً من الخشب . وكان قريباً منه غابة يحصل منها على خشب الوقود . وكذلك بالقرب منه بركة تحوى القليل من السمك . وكان عندما يحتاج إلى أكثر مما يحصل عليه من البركة والغابة . يؤجر نفسه للمزارعين المجاورين ويشترى بعض حاجاته بما يكسبه من أجر عمله . وقد كلفه بناء الكوخ ثمانية وعشرين دولاراً . وكان طوله ١٥ قدماً وعرضه ١٠ أقدام ؛ وهو يصفه بأنه يحوى من المرافق أكثر مما يحتوى المسكن العادى فى المدينة . . . « ولم يكن له قفل على الباب أو ستار على النافذة ، وكان جزءاً من الطبيعة بقدر ما كان جزءاً من العمل البشرى » .

وهو حين يصف الطبيعة تحس كأنه قد انتشى بها كما ينتشى أحدنا بالخمر ، بل كأنه قد تزوجها ويحس فيها طرباً جنسيًّا قد بلغ الذروة . وهو يستخرج منها لهذا السبب الإحساسات والمعانى التى التى تخطر على بال من يعيشون فى المدن حيث معظم اللذات مصنوع . انظر إلى قوله : « الإنسان الحيوان ابن عم أشجار الصنوبر وأحجار الصخر » .

« ليست الأرض التى أدوسها هامدة ميتة . إذ هى جسم وروح . . . وليس لأمعائها الدقيقة نهاية . هنا كمان من الأنوار ، من الأكباد ، من الأمعاء . أليس لك أمعاء ؟ إن للطبيعة أمعاء ، ثم هى أم البشرية . وعندما نضع البذور فيها تتجرد ثم تنموا » .

هذا هو الانتشاء بالطبيعة . وهو مثل كل انتشاء . يحوى شيئاً من

الهذيان ولكنه هذيان ملهم يدل على حقائق . وهو يقول أيضاً :

« يجب أن تصعد فوق الجبل كى تعرف العلاقة بينك وبين المادة . أى بين جسمك وبين المادة ، لأن جسمك يجد بيته هناك » .

« انظر إلى أصابعى وكيف أتناول وأعبث بها . أجل ، إنها ، هذه الأصابع ، قد تكون جزءاً من قمة هذا الجبل الذى أصعد إلى قمته كى أرى أبناء عمومتى . إنه يحوى أصابع الأيدى والأقدام كما يحوى الأمعاء . ومن هنا اهتمامى » .

ثم يقول : « عش فى كل فصل من فصول السنة . تنفس الهواء واشرب الشراب . وتذوق الفاكهة واستسلم لها جميعاً . ولتدفعك جميع الرياح . وافتح مسامك جميعاً واستحم فى مد الطبيعة وفى أنهارها ومحيطاتها فى جميع الفصول .

« وإذا كنت تحس أنك تستقبل النهار والليل فى طرب وفرح ، وإذا كانت الحياة تنقل إليك أنفاس الزهر والعشب فى أرج جميل ، فأنت موفق . والطبيعة تهنئك . ولك الحق عندئذ فى أن تحس أنه قد بورك عليك » .

* * *

لم يقض هنرى ثورو عمره كله فى كوخه . إذ هو رجع بعد سنة وشهور إلى المدينة ، وهو بهذا يحملنا على أن نفهم أن عودة البشر إلى حياة الفطرة فى الغابة لم تعد ممكنة . وإنما قصارى ما نفهمه من تجربته أنه أومأ إيماءة لنا بأن التكاليف الاجتماعية الباهظة نستطيع أن نستغنى عنها . وأن فى « الفقر الإدارى » كما سماه قيمة يجب ألا نستهين بها . فإن حياة المدينة وما فيها من هرولة وعصبية وهموم ، كل هذا يمكن النجاة منه بأن نجعل شعارنا : كيف نستغنى ؟ بدلا من كيف نقتنى ؟

والولايات المتحدة بعد مائة سنة من تجربة ثورو أحوج إلى عبرته مما كانت فى عام ١٨٥١ . لأن المباراة التى يعيش فيها الأمريكيون هذه الأيام هى أقتل للنفس وأبعث للقلق والخوف مما كانت فى أيامه . والأمريكى الذى ينبعث فى عام ١٩٥٠ إلى مثل تجربة ثورو هو رجل سعيد بالمقارنة إلى المهرولين العصبيين الذين يملأون أسرة المستشفيات للأمراض العقلية .

وإنه لمن الحسن أن ينبهنا كاتب ، بإسرافه فى الحب للطبيعة ، إلى أنه ، إلى جنب الشارع والنادى وسهرات الكتول وعد النقود وشراء الأرض واقتناء الضياع أو الأسهم فى الشركات ، إلى جنب هذا توجد أرض وسماء وأشجار وزهور وأنهار وجبال ، وأن القمر يضىء فى الليل ويكسو الحقول بأشعته ، وأن النجوم تنادينا فى الظلام كى نتأملها ونتحدث إليها .

وأننا من وقت لآخر يجب أن نختلى ونستوحد ، كى نعيد النظر فى حياتنا ونسأل هل نحن نعيش مسوقين بضغط العادات الاجتماعية التى لم نفكر من قبل فى قيمتها ؟ وألا يجدر بنا أن نغير هذه العادات أو ننقحها بإلهام الطبيعة التى تردنا إلى الأصول والجذور ؟

[redacted]

تولستوى
فيلسوف الشعب

ولد تولستوى فى عام ١٨٢٨ ومات فى عام ١٩١٠ .

ومن هذين التاريخين نرى أنه عاصر القرن التاسع عشر كله تقريباً ولكنه لم يكد يعيش فى القرن العشرين ، فقد مات قبل الحرب الكبرى الأولى بأربع سنوات . وما كان أحوجنا إلى أن نسمع . صوته عن هذه المجزرة البشرية العظمى .

ولكنه فى القرن التاسع عشر رأى كثيراً واختبر كثيراً . فقد اشترك فى حرب القرم فى عام ١٨٥٤ . ورأى بعد ذلك حرب السبعين بين فرنسا وألمانيا . ورأى أحد القياصرة يقتل . ورأى تحرير العبيد فى عام ١٨٦١ . واصطدم بالكنيسة وطرد منها . واصطدم بعائلته حين أراد تسليم أرضه الموروثة للفلاحين . وانهزم ؛ وصمت .

وكان طيلة حياته فى النصف الثانى للقرن التاسع عشر ضمير أوربا ، يرتأى الرأى ويعظ الموعظة ، ولكنه قلما كان يزيد على ذلك . وهنا أكبر إهماله أو خطأه .

كان ضمير أوربا ، كما كان غاندى — منذ ١٩٢٠ إلى ١٩٤٨ — ضمير الهند والعالم . كلاهما ، تولستوى وغاندى ، صورتان لشخص واحد ، هما صورة الأستاذ وتلميذه ، ولكن هذا التلميذ ، غاندى ، حاول أن يجعل آراء تولستوى ومواعظه أعمالا منفذة .

فى هذه الحياة الطويلة التى عاشها تولستوى رأى أهوالا من الشقاء البشرى كان أولها حرب القرم . فإنه يذكر أنه عقب هذه الحرب لم يطق إلا أن يأخذ قلمه ويكتب . وأن ينذر قلمه لمحو هذا الشقاء البشرى. أى الحرب .

ولكن حرب القرم يمكن ، بالمقارنة إلى حروبنا الجديدة التى تخيم على عالمنا العصرى ؛ بالذرة المنشقة والذرة الملتحمة ، يمكن أن تعد مباراة فى كرة القدم .

ولو أن تولستوى كان حيًّا فى أيامنا ، وكان يسمع أو يقرأ ما يقال عن الحرب المنتظرة ، لطالب بإرسال جميع المسئولين إلى المارستان .

إنها الحرب التى جعلته يقول فى عام ١٨٥٤ : لم أتمالك أن أتناول القلم وأكتب . وكل رجل شريف له قلم يجب أن يقول مثل هذا القول هذه الأيام .

والحرب بؤرة لمشكلات عديدة . اضطر تولستوى ، كما يضطر غيره فى مثل هذه الظروف ، إلى أن يشتبك فيها .

فاشتبك فى معنى الدين ! ودلالة الفن ، وهدف الثقافة ، وأسلوب العيش ، وعادات الحب والزواج . وكتب القصة الفنية ، والرسالة المناقشة.

وحاول أن يحس وفق ما يقول ويؤمن . ونجح قليلا وفشل كثيراً .

نجح من حيث إنه عمم الإيمان بأن المجتمع يعانى من الأسواء ويحمل من الأوضار ما يجب أن يبعثنا على إصلاحه . فكانت بذلك مؤلفاته إيحاء للثورة .

وفشل من حيث إنه كان يعتقد الاعتقاد الدينى بأن إصلاح الفرد يؤدى إلى إصلاح المجتمع . . و لم يفقه قط إلى أن الفرد مسير بعادات المجتمع وأساليب عيشه . ونظم أخلاقه وعاداته . وأنه لن يتغير إلا إذا غيره المجتمع أو هيأ له أسباب التغير .

كان تولستوى مثاليًا ولم يكن ماديًا .

* * *

نجد فى حياة تولستوى ظروفاً أو حوادث رسمت له خطوط حياته .

فإن حرب القرم بفظائعها جعلته كاتباً يكتب عن قهر وإلزام لأنه لا يطيق الصمت . وهذه الحال أعظم ما يهيئ التفوق والنبوغ فى الكاتب ثم رأى هول النظام الإقطاعى فى روسيا ؛ والرق الزراعى الذى كان يقضى بخضوع الفلاحين لصاحب الأرض ؛ لا يتركونها إلى غيرها . إذ هم عبيد تملكهم الأرض ولا يملكونها . وقد ألغى الرق فى عام ١٨٦١ ، ولكن تولستوى حرر عبيده تطوعاً قبل أن يسن هذا القانون .

ورأى تولستوى فى حياته الأدبية صراعاً بين المستغربين والمستشرقين . فإن دعاة الإصلاح انقسموا فريقين : أحدهما يقول بالتزام روسيا لمبادئها الشرقية . والآخر يقول بأخذها بالأساليب الغربية .

وهذا التردد أوقع بالشعب فى بلبلة كسب منها الرجعيون . أى القيصريون والكنسيون . أليست القيصرية والكنيسة مؤسستين شرقيتين وطنيتين يجب المحافظة عليهما ؟ ولذلك كان القول بتحرير العبيد من الرق

الزراعى . وتعليم المرأة فى الجامعات . والتفكير الاجتماعى فى معانى الدين . بل البرلمان نفسه . كل هذا كان من بدع المستغربين الذين يعدون خونة للمبادئ الشرقية الروسية .

وكان فى الجانب الآخر دعاة الحضارة الغربية العصرية الذين أخذوا بالمذهب الماركسى فى الاشتراكية . والذين كانوا يطالبون بإلغاء القيصرية واحتضان الثقافة العلمية الأوربية .

وانتقلت هذه المعركة إلى الأدب الروسى واحتلت مركز المناقشة فيه .

فى ناحية نجد دستوفسكى ينعى على أوربا ماديتها ويدعو روسيا لاستيفاء شرقيتها .

ومن ناحية نجد تورجنيف يدعو إلى الغرب .

ومن هنا نشأت كلمة « العدمية : النهلزم » التى سكها تورجنيف كى يبين البلبلة أو اليأس الذى يقع فيه شبان روسيا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر حين كان يحملهم قنوطهم على طلب العدم ؛ لأن الوجود لا يطاق .

الوجود لا يطاق إزاء ناس أشرار يطالبون بقاء القيصرية والكنيسة المستبدين ، وبقاء الرق الزراعى . وبقاء المرأة للبيت ؛ وبقاء الاستسلام والخضوع والرضى بالفقر .

* * *

لكل كاتب أب روحى ينتمى إليه ، أو هو يعتقد أنه ينتمى إليه :

وفى هذا الانتماء أنسة تتولد منها شجاعة وإصرار ، وإحساس بالسلامة بالبعد عن الأخطار . ولا عبرة بأن يكون الأديب المنتمى مخطئاً ، وإنما العبرة بالإيمان .

وكان الأب الروحى لتولستوى ، جان جاك روسو .

كما كان الأب الروحي بعد ذلك لغاندى . تولستوى نفسه .

وقد صرح تولستوى بأن فى شبابه كان يعبد روسو . وأنه كان يحمل ميدالية عليها صورة هذا الأديب الفرنسى العظيم . ولقد قال فى أحد مؤلفاته : « إنى أحس . وأنا أقرأ لبعض الصفحات من روسو . كأنى أنا قد كتبتها » .

ونحن نجد بين الاثنين قاسماً مشتركاً . فإن كلا منهما وجد فى الرجوع إلى بساطة الحياة حلا للعقد الاجتماعية التى أوجدتها الحضارة العصرية ، والتى جعلت حياتنا شاقة بالطموح المسرف . والمباراة القاتلة ، واتخاذ القصد المخطئ فى الجهد لجمع المال . والعيش فى البذخ .

لقد دعا روسو إلى العودة إلى الطبيعة وإلى المعيشة الساذجة . وقد عاش روسو فى هذه الطبيعة الساذجة حين آثر الريف على المدينة ، والالتصاق بالأرض والإنتاج الزراعى على مركبات الحضارة العصرية التى كثيراً ما تستحيل إلى عقد .

ونحن نجد فى اعترافات روسو . ثم اعترافات تولستوى . أمكنة عديدة للمشابهة . ولكن يجب أن نسأل قبل أن نلتفت إلى هذه الاعترافات .

لماذا كتبها روسو وتولستوى؟ بل لماذا كتب غاندى ، تلميذ تولستوى ، اعترافاته أيضاً التى سماها « تجارب فى الحياة » ؟

السبب هو القلق . فإن هؤلاء الثلاثة الذين هدفوا إلى الطمأنينة والسلام والسعادة فى كتاباتهم . كانوا قلقين لهذا السبب نفسه . أى أن جهدهم لتحقيق الطمأنينة والسلام والسعادة قد أحالهم إلى مفكرين مكافحين مخاصمين للمجتمع الذى عاشوا فيه . وقد تألموا جميعهم . فإن روسو طورد كما لو كان مجرماً . بل إنه عاش بعض سنى حياته وهو مختبئ أو هارب .

وتولستوى طورد من الكنيسة التى كان يرفع دينها إلى أعلى مرتبة . وأما غاندى فقد ضرب وحبس . ثم أخيراً قتل .

ولسان هؤلاء الثلاثة جميعاً يقول . كما كان يقول أرميا : « ربى ! لم جعلتنى مُشَاقًّا لأهلى ؟ » أى ربى . لم جعلتنى على شقاق مع مجتمعى ؟

ولكن أرميا كان يجهل أن كل من يطالب الإصلاح والتطور والارتقاء لن يمكنه أن يؤدى هذه الرسالة إلا بعد شقاق بينه وبين أهله . وهؤلاء الأهل ، أو هذه الشعوب والمجتمعات ، بعد أن تضرب النبى أو الفيلسوف والأديب ، وتحبسه ، وقد تقتله . بعد ذلك تقيم له التمثال الذى يخلد صورته وتحتفل بذكراه وتدرس أقواله .

وعظماء الأدباء فى أيامنا هم الأنبياء وهم الفلاسفة .

* * *

لما كان تولستوى فى شبابه وجد نفسه نبيلا ممتازاً على الشعب بالثروة والمقام . وله عبيد زراعيون يجرى عليهم حكم الرق . فأعتق عبيده هؤلاء ولكنه بعد ذلك وجد أن المباراة التجارية الجديدة ، واستخدام رأس المال الوطنى والأجنبى ، وظهور طبقة جديدة من الأثرياء الذين يطلق عليهم اسم « بورجوازيين » ، وجد أن المناخ الاقتصادى الاجتماعى الجديد ، على ما يزينه من طلاء الحضارة والثقافة — هذا المناخ أسوأ من المناخ الزراعى القديم . فكر الحضارة الغربية العصرية ودعا دعوة الحياة الساذجة الفطرية ، دعوى روسو قبل مائة سنة .

وهنا نحتاج إلى أن نتلبث قليلا ونبحث الموقف السيكلوجى .

فإن جان جاك روسو حين خبر المظالم الملوكية والإقطاعية فى فرنسا ، وحين شاهد البذخ النجس فى الطبقات البشرية إلى جنب الفقر الساحق المهين فى عامة الشعب ، حين رأى ذلك قال إن الحضارة كلها نجاسة

يجب أن نتجنبها ونعيش فى سذاجة . لا نشترى الذهب ولا نبنى القصور ولا نأكل على الموائد المطهمة ولا نقتنى الحرير .

وكذلك تولستوى حين رأى غزو النزعات التجارية . والجشع ، أى الاستكثار من الثراء بالمباراة القاتلة وسحق الفقراء من العمال . ثم ما ينبنى على ذلك من مدن يحيا فيها الأثرياء مع التعطل والدعارة إلى جنب آلاف العمال الجائعين الذين يعيشون فى البدرومات — حين رأى ذلك قال أيضاً بأن حياة الريف خير من حياة المدن . وأن الصناعات الصغيرة فى القرى خير من المصانع الكبيرة فى المدن .

وقد تعلم هو صناعة الأحذية كى يحس راحة الضمير . وكان يحرث الأرض . وكان يقول إن المتمدنين الغربيين يلعبون الألعاب الرياضية لأنهم لا يؤدون أعمالا مجهدة . ولو أنهم كانوا يعيشون مثل الفلاحين على الأرض لما احتاجوا إلى الرياضة البدنية .

ثم جاء غاندى فأجب تولستوى كما كان هذا يجب روسو . وأسس مزرعة باسم « مزرعة تولستوى » حين كان فى أفريقيا الجنوبية يدرس مشروعاته فى مقاومة الشر بالخير . وكان يعمل ويجرب فى أساليب الحياة التى أصبحت مذهباً عاش به الهنود . فلبسوا الخيش وأكلوا الخضراوات وصاروا يغزلون وينسجون كى يستغنوا عن الأقمشة الإنجليزية الواردة إليهم من إنجلترا .

* * *

أرجو ألا يفهم أحد أنى أمدح هؤلاء الثلاثة على الخطط الأساسية التى زعموا أنها تصلح للحياة العالية . وإنما وجدت أنه يجب . كى نفهم تولستوى . أن نذكر هذا الاتجاه الذى لم يخل منه عصر . ويكفى أن نقرأ قصة « نشيد الإنشاد » فى التوراة كى نعرف أن هذا الاتجاه قديم .

إذ أن هذا السفر لا يعدوا أن يكون دعوة إلى الطبيعة والسذاجة والقناعة ضد الحضارة .

وفى قلب كل منا شيء يهفو إلى هذه الحياة . ونحن نزداد تفكيراً فيها عندما نجد أن مركبات الحياة المتمدنة قد استحالت إلى عقد يعسر علينا حلها ، وأننا نقع فى مضاعفات تقلقنا وتؤيسنا وتمرضنا .

التفكير فى العودة إلى الطبيعة ، والتفكير فى القناعة بحياة الريف ، والتفكير فى لبس الخيش وطعام النبات — كل هذا هروب من عقد الحضارة العصرية ومضاعفاتها والعجز عن حلها .

أما متى وجد الحل فإن أحداً لا يفكر كما فكر هؤلاء الأبطال الثلاثة .

* * *

تمتاز القصة الروسية ، على وجه عام ، بالواقعية . وهذا هو الأثر الذى تخلفه قراءة قصة روسية عند القارئ العربى الذى يعرف الآداب الروسية .

وتولستوى واقعى يتعمق البواعث الخفية ويكشف عنها فى صراحة كثيراً ما فزعت منها الطبقات الحاكمة فى روسيا .

وهو فى كل ما يكتب لا ينسى أن ينبه إلى أن الحضارة العصرية غير إنسانية . وأشخاص قصصه فضلاء مستقيمون إذا كانو فلاحين ساذجين مثل « لفين » فى قصة « أنّا كارنينا » . وهم أرذال منحرفون إذا كانوا متدينين مثل « فردمنسكى » فى هذه القصة نفسها .

وهذا تحيز واضح له أصول فى روسو معلمه الأول .

ثم هو ، مثل روسو قبله ، ومثل غاندى بعده ، شعبى . أى مع عامة الشعب والفقراء والمسحوقين والمحرومين . ومن هنا دعوته إلى تبسيط اللغة

الروسية . بل إن كراهيته لشكسبير تعزى ، إلى حد بعيد ، إلى أن هذا الشاعر الإنجليزى يتعالى على الشعب ويسميه غوغاء لا يفهمون . وإلى أن معظم أبطاله ملوك وأمراء . بل إنه يسرف هنا حتى يقول إنه يفضل أغانى الشعب الروسى العامية على أشعار جوتيه شاعر ألمانيا العظيم .

وأسلوبه لهذا السبب شعبى . هو حديث يكاد يكون عاميًّا . لانجد فيه تلك الكلمة المضيئة أو العبارة المزوقة التى اعتدنا أن نجدها فى كتب الأدب الأخرى . ولكنه فى كل ما يكتب سيكلوجى عميق لا يعلو عليه هنا غير دستوفسكى الذى عرف سيكلوجية فرويد قبل فرويد .

* * *

وربما يكون من المثير هنا أن نقارن بين تولستوى ودستوفسكى .

فإن كلاهما كاتب عظيم من كتاب القصة . بل لا نغالى إذا قلنا إنهما أعظم كاتبين للقصة فى العالم كله . ومع ذلك أنا أوثر عليهما جوركى ؛ ولكن ليس ذلك لأنه يعلو عليهما فى فن القصة ، وإنما لأنى أجد فيه مزاجى ونزعتى واتجاهى فى الثورة التى لا يرضى عنها تولستوى أو دستوفسكى المسيحيان .

وهناك فرق أصيل بين دستوفسكى وبين تولستوى .

ذلك أن دستوفسكى يهدف إلى إيجاد أشخاص ، بل أبطال . لكل منهم شخصيته الفذة التى يختلف بها عن سائر المجتمع فهم فلاسفة أو مجرمون أو حتى مجانين . ولكنهم عباقرة . ولكن عبقريتهم فى الإحساس أكثر مما هى فى العقل . هم أذكياء فى الإحساس . فإن « رسكلنيوف » بطل « الجريمة والعقاب » وهى القصة التى كنت أول من حاول ترجمتها فى عام ١٩١٢ ، هذا البطل يقتل امرأة عجوزاً عن تعقل منطقى . ولكنه يعترف بعد ذلك بالجريمة ، ويرضى بحكم الإعدام أو النفى المؤبد عن

إحساس إنسانى . ولهذا المؤلف أشخاص متدينون فى قصته العظيمة « الإخوة كرامازوف » تتأمل تدينهم العميق فتشك فى إيمانهم : هل هم مسيحيون أم إنسانيون ؟ وهل ينشرون النور أم الظلام ؟ نحن نقرأه ونحن نعانى لذة أليمة ، وكأننا فى قبضة محلل سيكلوجى نستجيب لأسئلته بومضات الذهن وارتجاف القلب .

جميع أبطال دستوفسكى شواذ : مرضى ، ولكنهم عبقريون أذكياء .

أما تولستوى فمن الشعب يكتب للشعب . رجاله عاديون . وهو يعبر عن أعمالهم وصفاتهم بلغة شعبية بعيدة عما يسميه الاحتيالات البلاغية .

المثل الأعلى عند دستوفسكى هو الرجل الشاذ الذكى الذى يحس أكثر مما يتعقل .

والمثل الأعلى عند تولستوى هو الرجل العادى الذى لا يشذ عن المجتمع . ولكن هذا المجتمع يجب أن يكون ساذجاً يحيا فى الطبيعة والصلاح . هو الرجل الطيب فى معنى الطبيعة الشعبية . بل أكاد أقول العامية .

البطل عند دستوفسكى هو من ينفصل من المجتمع .

والبطل عند تولستوى هو من يندمج فى المجتمع .

وأحسن أشخاص القصص عند تولستوى هو « ليفين » صاحب الأرض فى قصة « أنّا كرنينا » وهو مزارع طيب يتسم بأفكار عرفية ، أى اجتماعية ، عن الحب والزواج والعائلة والصلاح . هو تولستوى نفسه وسائر المزارعين .

وأحسن الأشخاص عند دستوفسكى هو الطالب « رسكلنيكوف » القاتل الفاجر الذى يقتل العجوز كى يسرق أموالها ، لأن حياتها « لاتزيد فى القيمة على حياة برغوث » .

أليس هذا هو المنطق : منطق العقل وحده ؟

ولكن دستوفسكى يعود بعد ذلك فيشرح فى أكثر من مائتى صفحة أن هذا المنطق خطأ .

وأبطال دستوفسكى يختلفون فى معانى الحب من أشخاص تولستوى .

البطل عند دستوفسكى يحب المرأة البغى . ويعبدها . لأنه يعبد آلامها . وينغمس فى دموعها . ويكرع تعاستها . وكأنه يبكى فى هذا الحب تعاسة الناس وبغاء حياتهم وجوعهم . وهو يستنبط من هذا الحب المعانى الإنسانية التى تجعلك تسمو على نفسك .

أما أبطال تولستوى فيحبون هذا الحب الأفلاطونى الذى يتوهم الناس أنه الحب السطحى . مع أن أفلاطون قصد منه إلى الحب الشامل للإنسان والحيوان والنبات ، والصدق والشرف ، والحقيقة والفن والطبيعة .

الحب عند تولستوى هو الحب للناس أولا . ثم بعد ذلك لهذا الكون بكل ما فيه من مخلوقات .

ولهذا السبب كان تولستوى يقيس كل شىء بقيمته للشعب. فالكتاب أوالصورة أواللحن إنما هى جميعها وسائل لزيادة الاتحاد ، بل الاندغام ، بين أفراد الشعب . وعنده أننا كلما اندغمنا فى الشعب كنا أسعد ، وكلما انفصلنا كنا أتعس . ومن هنا كراهته لشكسبير الذى يكتب أحياناً فى وقاحة ، ويصف الشعب أنه غوغاء . وكذلك كراهته لجوتيه ، حتى قال إن الأغانى الشعبية الروسية تحوى من الفن أكثر مما تحويه أشعاره . وكذلك احتقاره لما كان يسميه « الاحتيالات البلاغية » لأن فنون البلاغة للخاصة وليست للشعب . ثم أخيراً نجده يحرث الأرض ويصنع الأحذية بيديه .

إنه يريد أن يكون من الشعب ويؤدى الأعمال الشعبية .

وهو هنا بالطبع مسرف . ولكن لهذا الموقف وجهاً يستحق أن نبحثه من ناحية المزاج النفسى والإحساس العاطفى ، وليس من ناحية الارتقاء البشرى والتقدم العلمى . بل إن لهذا الموقف مغزى لا يستهان به حين نتأمل خطط غاندى الشعبية فى الهند والنتيجة التى انتهت إليها .

* * *

تغمر إحساسات الحب حياة تولستوى .

الحب الأفلاطونى الذى يشمل الحياة والطبيعة : حب روسو .

وأكبر الظن أن روسو . هو الذى نبه ذهنه إلى الحب . أو هو الذى أيده وبعث فيه الاستطلاع والتعرف .

ولذلك لا نستغرب من تولستوى أن يلتفت إلى معانى الحب التى دعا إليها الإنجيل . ولكن التفاته هذا أدى به إلى الاصطدام بالكنيسة .

والواقع الذى يثبته تاريخ أوربا أنه كلما اقتربنا من الإنجيل ، وحاولنا أن نفهم تعاليمه منه مباشرة ، ونقرأه مثل أى كتاب آخر ، كلما فعلنا ذلك ، ابتعدنا عن الكنيسة . ونعنى بالكنيسة هنا كهنتها .

فإن لوثر ، المصلح البروتستانتى ، حين شرع يدرس الإنجيل مباشرة طردته الكنيسة الكاثوليكية . وكذلك فعلت مع رينان . وكذلك فعلت الكنيسة الأرثوذكسية مع تولستوى .

إن للكهنة تفسيرات « رسمية » للإنجيل . فمن تجرأ من المسيحيين على أن يفهم كلمات الإنجيل ، خارج هذه التفسيرات الرسمية ، فإنه عندئذ يكون عرضة للوم والحرم . وليس هذا شأن الكنيسة أو الكنائس البروتستانتية ، التى تعلمت من طرد لوثر ألا تطرد أحداً يخالفها .

وكان طرد تولستوى أو إلقاء الحرم عليه ، قائماً على أنه نظر إلى المسيح النظرة الإنسانية ، ووجد فى الأخلاق التى دعا إليها ، وعمادها

الحب. أخلاقاً لا تحتاج إلى وحى إلـهى. بل إنه يقول إنه هو نفسه، أى تولستوى، كان يمكنه أن يقول بما قال به المسيح فى الأخلاق دون أن يحتاج إلى وحى إلـهى. لأن هذه الأخلاق هى أفضل ما نعرف وأليق ما تكون للمجتمع البشرى. هى أخلاق علمية.

وهو يقول فى إحدى مذكراته حين كان يقاتل فى حرب القرم حوالى عام ١٨٥٥: «... خطرت بذهنى فكرة: هى تأسيس ديانة جديدة تتفق والحال الحاضرة للنوع البشرى. أعنى الديانة المسيحية التى تتطور من العقائد الجامدة ومن الغيبيات بحيث تصير ديانة عملية لا تهبنا سعادة المستقبل (بعد الموت) وإنما سعادة الحاضر على هذه الأرض».

وهو يستخلص من موعظة الجبل فى الإنجيل هذه الوصايا الخمس:

١ ــ لا تغضب.
٢ ــ لا تزن.
٣ ــ لا تقسم.
٤ ــ لا تقاوم الشر.
٥ ــ لا تكن عدوًّا لأحد.

هذا هو كل ما يؤمن به من الإنجيل. وما عدا ذلك فزيادات يمكن الاستغناء عنها، ولكن تولستوى مع ذلك لم يجابه كل الحقائق، ولو كان قد فعل لاستقر على العلم وحده.

* * *

حقيقة الموت من أعظم الحقائق التى تواجهنا عندما نفكر فى الحياة البشرية.

لماذا نموت؟ ولماذا نخاف الموت؟

وقد فكر تولستوى كثيراً فى هذا الموضوع. وله قصة تسمى

« ثلاث توبات » توضح لنا رأيه فى الموت . وقد كتبها فى عام ١٨٥٨ .

والموتات الثلاث هى موت سيدة ثرية متمدنة ، وموت فلاحَ فقير ساذج ، ثم موت شجرة . وهو يصف تدرج الموت : منذ بدايته حتى نهايته ، فى هذه الأحياء الثلاثة . وله نظرية فى ذلك ، هى أنا نتألم من الموت ونخشاه لأننا نحيا فى الحضارة على وعى بأن كلا منا فرد منفصل . ويزداد هذا الإحساس إذا كنا متمدنين متعلمين . ولذلك تخشى فى السيدة الموت .

أما الفلاح ، فلأنه ساذج ، يحيا مع الطبيعة ولا يحس فرديته إلا بمقدار صغير : أى أنه ليس على وعى خاص بحياته . هذا الفلاح يتحمل الموت ويستقبله بأقل الألم وأقل الخوف .

أما الشجرة التى تخلو من الوعى : وليس لها أى إحساس بفرديتها إذ هى جزء متم لا ينفصل من الطبيعة ، هذه الشجرة لا تحس بتاتاً بالموت . ونحن حين نقطع غصونها ونكسر ساقها لا نجد فيها ما يدل على ألم أو خوف .

والمغزى الذى يستخرجه تولستوى من هذه المقارنة بين الموتات الثلاث ، أنه كلما ازددنا ثقافة وتمدناً ومعرفة : ازددنا أيضاً وعياً وانفصالا من المجموعة البشرية . ونحن نتألم لهذا الوعى والانفصال وقت الموت . ولكن لو كان وعينا وانفصالنا ضعيفين أو معدومين لكنا مثل الفلاح ، بل مثل الشجرة . لأن موتنا جزئى ، إذ نحن أحياء فى المجتمع أو الطبيعة لأننا لم ننفصل منهما . إذ يكون موتنا بمثابة من تكسر أصبعه أو يده فقط .

إن تولستوى طبيعة أخرى لرسو .

إنه يمدح الحياة البدائية ، بل يمدح الطبيعة غير الواعية . ويجد فيها

الفلاح آلام الموت والشقاء من الخوف من العدم .

وهو بالطبع لا يؤمن بالغيبيات التى تلى الموت . ولا يشتهى ، ولا ينتظر أطباق الحلوى بعد الموت . هذه الأطباق التى يعتقد بعضنا أنها تخفف من ألم الموت وتزيد الخوف منه . مع أن الواقع يثبت غير ذلك .

* * *

إن تولستوى يستحق النقد هنا .

ذلك أنه نظر إلى الموت من حيث إنه مواجهة العدم للإنسان . وإنه نهائى ليست بعده حياة أخرى . .

ولكن عبرة الموت يجب أن تنعكس على الحياة .

إذا ما دامت الحياة تنتهى بالموت انتهاء تامًّا . فيجب لذلك أن نحيا حياتنا بأقصى وأعمق ما نستطيع ، وأن نجعل من هذه الدنيا نعيماً لأبناء البشر . نحن فى سعادة وسلام وعلم وثقافة واستمتاع ، ونعم الخير والعدل . ونتحمل نحن وحدنا المسئولية فى كل ذلك بدلا من إلقاء المسئولية على قوات غيبية .

ولكن تولستوى لم يكن يرتفع إلى هذا التفكير لأنه لم يكن ثوريًّا والثورة وحدها . أى السعى لإيجاد ثورة تغير المجتمع ، هى التى نقلت الاهتمام النفسى والذهنى من التفكير فى الدين إلى التفكير فى الدنيا .

وكراهة تولستوى للثورة يعود إلى إيمانه المطلق بأن الشر يجب ألا يقاوم ، وأن الموقف السلبى من المظالم والشرور جميعها هو الموقف الذى اتخذه بعد ذلك غاندى .

وقد اتخذه غاندى نقلا عن تولستوى .

لم يكن تولستوى يؤمن بالثورة . إذ كان يقنع بالإيمان بالمسيحية ، بالإخاء المسيحى .

ولكننا مع ذلك نظلمه إذا قلنا إنه لم يعمل لتعجيل الثورة. ذلك أنه عمم السخط بين طبقات المثقفين فى روسيا لأنه أبرز مظالم المجتمع والحكومة والكنيسة. وهذا السخط كان الاختبار الذى سبق الانفجار بالثورة.

لم يكن اشتراكيًّا ؛ ولم يكن له برنامج ، ولم يكن له كفاح عملى مذهبى سوى تسليم الأرض للفلاحين . وقد حاول هو نفسه أن يفعل ذلك واصطدم بعائلته التى منعته من إنفاذ نيته .

لم يكن تأثيره إرشاديًّا للثورة ، ولكنه كان إيحائيًّا .

* * *

ولا نستطيع أن نقول إن غاندى قد أرشد الثورة فى الهند بالتعاليم التى أخذها عن تولستوى . وإنما قصارى ما نقول عنه إنه أوحى بها ولونها بلون الوداعة التى انتهت بالمقاطعة ، مقاطعة الإنجليز المستعمرين .

وكلاهما ، أى تولستوى وغاندى ، يجهل الأساس الوحيد الذى تنبنى عليه المجتمعات وتتغير بتغيره وتتطور بتطوره .

هذا الأساس هو الأساس الاقتصادى .

كان كلاهما « مثاليًّا » وليس « ماديًّا » .

كان كلاهما يطلب الأخلاق ثم الإصلاح .

الأخلاق عند كل من تولستوى وغاندى تؤدى إلى الإصلاح .

وهذا هو الخطأ الفادح .

لأن الأخلاق ليست شيئاً سوى الثمرة أو الثمرات ، التى يثمرها النظام الاقتصادى . فإذا كان هذا النظام حسناً عادلا فإن الأخلاق تكون حسنة عادلة .

كان كلاهما يطلب إصلاح الفرد . ثم يؤدى ذلك فى منطقه إلى إصلاح المجتمع .

ولكن العكس هو الذى نؤمن نحن به الآن ؛ فإننا نقول إننا نحتاج إلى مجتمع عادل لكى يتعلم أفراده بنظامه ، محض نظامه ، ويمارسون العدل فى علاقاتهم الواحد مع الآخر .

موقف غاندى وتولستوى هو الموقف المسيحى . وهو أن على الفرد واجبات إذا أداها صار المجتمع صالحاً .

ولكن هل نجحت المسيحية فى ذلك ؟

إنها لم تنجح . بل انتهت بعد ألفى سنة من تعاليمها باختراع القنابل الذرية الهيدروجينية ، أقوى أسلحة الشر فى تاريخ العالم .

إن أسوأ ما فى تولستوى وغاندى معاً إنهما لم يفهما ، ولم يدرسا التفسير الاقتصادى للتاريخ .

ولكن هل معنى هذا أنهما لم يخدما عصرهما ؟

لا . لأن الواقع أنهما ، كما قلنا ، أوجدا سخطاً أدى إلى اختمار . ثم انتهى الاختمار بالانفجار . فكانت الثورة الاشتراكية فى روسيا . ثم ثورة الاستقلال فى الهند .

السخط جعل الناس يفكرون ويغضبون . وانتهى التفكير والغضب إلى الثورة التى شبت بعد وفاة تولستوى بسبع سنوات فى عام ١٩١٧ .

ولكن هذا السخط الذى جعل الناس يفكرون ويبتكرون جعل تولستوى نفسه يبتئس ويشقى . إذ كان هو يسخط ويتآكل بسخاره لأنه لم يكن له برنامج اجتماعى للثورة .

ولذلك أيضاً وجدناه بعد حياة بلغت ٨٢ سنة ينهض من فراشه فى الفجر ويترك بيته وأولاده ويفر إلى حيث لا يعرف . إذ لم يكن له وجهة ولم يكن له قصد .

كان يريد الفرار فقط .

فر من الحياة البائسة إلى الموت . ومات .

وبموته أثبت أن ما كان ينشده من الارتباط العضوى بالمجتمع : على الطريقة التى رسمها : لم يعد ممكناً . لأنه لم يعد من الممكن أن نتزل عن وعينا بالنزول عن ذكائنا وثقافتنا ، ونحيا حياة الفلاح أو حياة الشجرة . ولكن هناك ارتباطاً آخر يحسه الرجل المثقف الواعى فى أيامنا ، هو هذه الاشتراكية التى ننشدها . فنحن فى حياتنا ، بل كذلك فى موتنا . أجزاء متممة للمجتمع ، نرقى برقيه . . . فلا نشقى من الحياة . ولا نخاف من الموت .

ومع كل ما ذكرت عن تولستوى وروسو وغاندى . ومع كل ما نجد فى حياتهم وتعاليمهم من أخطاء . فإننا نهفو إليهم كما نهفو إلى النسيم المنعش ، لما نجد فيهم من إخلاص وسذاجة وحب تفسدها علينا الحضارة . العصرية .

فرويد
وتشريح النفس البشرية

فى النصف الأول من القرن العشرين خطا كثير من العلوم خطوات تقرب الوثبات . فإن انتهاء الطبيعيات بالطاقة الذرية يعد وثبة وإن تكن وثبة جامحة فى الظلام . إذ ما كان أحد ينتظر أن يصل عالمنا إلى هذا الكشف العظيم قبل مئات السنين ، ولذلك فوجئنا بالقنبلة الذرية فكانت شر البدايات التى عممت الذعر .

والتقدم فى الطبيعة والكيمياء والبيولوجية كان منتظراً منذ أكثر من مائة سنة ، لأن لهذه العلوم تاريخاً يعود فى بعضها إلى أكثر من مائتى سنة . ولكن السيكلوجية كانت إلى نهاية القرن الماضى علما مغلقاً أو كالمغلق . ولعل أكبر ما عاق تقدمه ، بل ميلاده ، هو أنه نشأ نشأة زائفة فى حضن الفلسفة التى كانت تنأى عن التجربة وتقتصر على التفكير المجرد .

ثم جاء فرويد فكشف عن النفس قناعاتها بمفتاح جديد هو « العقل الكامن » أو الكامنة .

وفكرة الكامنة هى إحدى الفكرات المحورية أو البذرية . فكرة خصبة ولدت ، وتوالد أولادها ، حتى ظهر من الأولاد ما عاق الأم ، ولكنه فى عقوقه قد أثمر ونفع .

وفى العقد الأول من هذا القرن كان صوت فرويد هامساً خافتاً ، فما هو أن بلغنا العقدين الثانى والثالث حتى صخب . وعلا بل طغى وأحس العالم أنها هنا قوة فكرية توجه الثقافة توجيهاً جديداً لم نكن نعرفه من قبل .

وإذا كان النصف الثانى من القرن التاسع قد حفل بالصراع الفكرى بشأن داروين والتطور ، فإن النصف الأول من القرن العشرين قد حفل بصراع آخر بشأن فرويد والعقل الكامن . وبين الفكرتين شبه كبير ذلك أن نظرية داروين قد أثبتت لنا أن الجسم البشرى هو ثمرة التطور ، وأنه لذلك يحتفى كثيراً من الأعضاء الأثرية القديمة التى ورثناها من الأرومة الحيوانية التى نشأنا منها . وكذلك الشأن فى نظرية فرويد . فإنه أثبت أن النفس البشرية قد ورثت وظائف وحشية قديمة ، وأننا نألم ونبتئس لأننا فى صراع لا ينقطع بين هذه الوظائف الطبيعية القديمة وبين قيود الحضارة التى تمنعنا من ممارستها .

وقد قضيت كثيراً من سنى عمرى فى ضوضاء هذه النظرية وتأثرت بها كما يبدو من مؤلفاتى فإنى أعد منها خمسة أو ستة ألفتها فى هذا الموضوع بالذات ، أو تناولت الموضوعات الاجتماعية والثقافية بالشرح والتعليل السيكلوجيين . فإن كتبى « فن الحياة » و« كيف نسوس حياتنا بعد الخمسين » و « التثقيف الذاتى » و « الشخصية الناجحة » هى معالجات

سيكلوجية لهذه الموضات ، وهذا فضلا عن كتابى « أسرار النفس » و « عقلى وعقلك » و « محاولات سيكلوجية » وهى فى صميم السيكلوجية الشعبية .

وقد انتفعت كثيراً بهذا الاتجاه السيكلوجى فى ثقافتى ، ولكنى لم أنتفع به كثيراً فى حياتى اليومية ؛ لأنى على الرغم من السيكلوجية مازلت أعيش وفق ما نشأت وتدربت عليه أيام طفولتى إلا القليل ، بل القليل جداً الذى استطعت أن أنفضه عن نفسى من أخلاق وعادات ذهنية طفلية . وأنا هنا شاهد على صحة التعاليم الفرويدية وهو أن للسنين الأولى من العمر أكبر الأثر فى التوجيه الأخلاقى .

ولكن جمعى بين فكرة التطور وفكرة العقل الباطن قد أخصب ذهنى وحركنى إلى تفكير أخلاقى جديد . فمن ذلك مثلا أنى تجنبت الخبط الذى يرجم به الكتاب فى موضوعات مختلفة مثل السعادة . فإنى وثبت فوراً وبداهة إلى أن السعادة هى الوجدان ، أى ما يسميه عامة كتابنا « الوعى » ، وأنه بمقدار ما عندنا من وجدان ودراية نكون سعداء . وبمقدار ما يستولى علينا العقل الكامن أو الكامنة نكون تعساء . وهكذا الشأن فى موضوعات أخرى .

وقولى إن فرويد قد هدانى ووجهنى ليس معناه أنى قد سلمت له بلا قيد أو شرط . ولكنه كان البذرة التى أخصبت فى نفسى . وأخصبت أحياناً ضد ما أراده فرويد . وحسبى من ذلك أن أقول إنى أوشك أن أكون « بافلوفيا » هذه الأيام من حيث الإيمان بأن الأفكار البشرية جميعها إنما هى رجوع انعكاسية مكيفة ، أى معدولة ، عن الرجع الأصلى . ولكنى ما زلت فى شك .

وقد كانت رحلتى فى السيكلوجية وانية متعثرة ، بدأت بفرويد ثم

يونج ثم أدلر ، ثم أولئك الأمريكيين التجريبيين ؛ ثم كرتشمر ثم بافلوف .

ولكن فرويد هو الذى فتح لى الكوة وبسط لى الميدان وأكسبنى الحافز .

وفرويد هو بعد ذلك المفكر الأساسى بين السيكلوجيين . فإنه حط على الحقيقة الأولى وهى الكظم العام للشهوة الجنسية وما يؤدى إليه من اضطرابات شخصية . وهو حين يجعل هذه الشهوة حافزاً أولياً للنشاط البشرى لا يعدو الحقيقة فى عالم الحيوان كله . ثم هو حين يعلق مستقبلنا الأخلاقى والمزاجى والعاطفى على السنين الأولى من الطفولة إنما يوضح حقيقة بل أكبر الحقائق فى مبادئ التربية وقيمة العائلة الحاسمة فى التوجيه الاجتماعى الصحيح .

وأخيراً هو الذى جعلنا نعرف أننا نسير فى هذا العالم بقوة العواطف المستترة فى الكامنة أكثر مما نسير بقوة الوجدان اليقظ الذى ندرى به ما نفعل . فنحن نحب ونكره ، ونخاف ونشجع ، ونشمئز ونقبل . بعواطف اندست فى كامنتنا منذ الطفولة ونكاد لا ندرى بها إلا بعد التحليل الشاق .

فقد يحب أحدنا فتاة ويتزوجها على اعتقاد أنه يحبها لأنها جميلة أو وديعة ، أو أن عينيها ساحرتان أو غير ذلك . وهو إنما أحبها لسبب طفلى هو أنها تشبه أمه أيام كانت تحمله على صدرها للرضاع . أو هو قد يكون مدللا نشأ على إحساس الحاجة إلى الأم ، وقد وجد فى هذه الفتاة رعاية الأم لأنها أكبر سناً منه . فهو يستجملها لهذا السبب . أو هو وجد فيها كبرياء وتسلطاً وهو « مازوكى » يحب أن يتألم ، فهو يحبها لأنه يحس فى جانبها أنه ذليل (وأيضاً محمى) . أو قد يكون عكس ذلك . أى أنه سادى يحب إيقاع الأذى والقسوة بغيره . فهو يختارها صامتة منكسرة أو ضئيلة الجسم ، لأن انكسارها وضآلتها يشبعانه ويزيدان إحساسه

بالقوة . أو قد يكون شاذًّا : فهو يحبها لأنها تشبه الصبيان والشبان .

وقد يكره أحدنا بعض الأطعمة ، بل لعله يشمئز من رؤيتها بحيث يكاد يعتقد أن هذا الاشمئزاز « طبيعى » . وهو إنما يردد فى نفسه ظرفاً معيناً سابقاً أو أسلوباً للعيش قد تعلمه فى طفولته .

وقد نجد شخصاً له « إرادة حديدية » لا يتراجع ولا ينحرف عن هدفه مهما اعترضه من صعوبات وكأنه معجزة عجيبة فى التزامه هذا الهدف وفى توفيقه بتحقيقه . وحقيقة أمره أنه لظروف سابقة معينة قد تخيل هذا الهدف وتجسم هذا الخيال الذى ربما يكون قد نشأ أيام الطفولة . ثم صار هذا الخيال يوجهه ، من حيث لا يدرى ، إلى هذا الهدف . ولبعض المجانين مثل هذه الإرادة الحديدية .

والإيحاءات المختلفة ، من أبوينا ومن المجتمع ومما نقرأ ومما تصادف فى شبابنا ، توجهنا وتعين لنا الحسن والقبيح . بحيث نعتقد أننا نحن الذين نعين هذا الحسن وهذا القبيح ، بل قد نتأثر بوحى أحلامنا ونحن نيام ونسلك فى الصباح وفق الرجوع التى أحدثها الحلم . ثم نبرر سلوكنا أو نسوغه بالمنطق .

وكل هذا يدل على أن ما نحسبه منطقاً فى سلوكنا إنما هو رجوع واستجابات لا شأن للمنطق فيها . ثم هو ، أى « فرويد » ، حين يوضح أن كلا منا ، أى « الذات البشرية » مؤلفة من ثلاثة أقانيم : أقنوم الإيد (id) وهو طبيعتنا الحيوانية وغرائزنا البدائية الكامنة ، ثم أقنوم الإيجو وهى شخصيتنا الوجدانية الاجتماعية التى ندرى بها ، ثم أقنوم السوبر إيجو وهو ضميرنا وما نتطلع إليه من شرف وبر وفضيلة — فى كل ذلك لا نستطيع أن نخالف فرويد .

وكذلك عندما يوضح لنا أن ضميرنا إنما يرجع فى الأصل إلى مجموعة

المحظورات التى تعلمناها منذ الطفولة : نضطر إلى التسليم بقوله :

بل كذلك أيضاً لا نستطيع أن نخالفه حين يقرر أننا فى الطفولة نحس دوافع لذية مبهمة تتفاوت بين القوة والضعف ، من الغرام الصريح إلى الحب الأفلاطونى .

كل هذا قد سلمت به وانتفعت به فى مركباتى الذهنية ، ولكنى اضطررت إلى مخالفته فى أساس نظريته وهو مركب أوديب هذا . ذلك أن فرويد يعتقد أن الطفل يحب أمه حبًّا جنسيًّا ويجد لذة جنسية فى الرضاع والتمسح بجسمها . وهو يضطر إلى كظم هذا الحب خوفاً أو حياء من أبيه . وأن هذا الكظم يدور فى دورات مختلفة بعد ذلك فى نفسه وهو يفرج عنه ، بنشاط بدلى كالتسامى ، إلى إيجاد مؤسسات الحضارة أو إلى ألوان أخرى من الثقافة أو قد يمرض منه .

ولم أستطع أن أقنع نفسى بكل هذا ، ولكنى مع ذلك أسلم بالعواطف المركبة فى الطفل نحو الأب وهى حب وكراهة واحترام وعداء . . وهى تعزى فى بعضها إلى مركب أوديب . فإن الطفل يغار على أمه من أبيه غيرة أظنها غير جنسية أو هى إذا كانت جنسية فإن الإحساس الجنسى فيها ضعيف حتى لا يكاد يؤبه به ، أى أن مركب أوديب ليس ميزان النفس البشرية وليس أساس المركبات النفسية فى الشباب .

اختلافى هنا مع فرويد فى الدرجة كما هو فى الموضوع . فأنا أسلم بأن خيال الأم أيام الطفولة يلصق بالطفل سائر حياته حتى ليختار زوجته من طراز أمه . وهو ينظر إلى رئيسه الأعلى ومن دونه من الرؤساء نظرته الطفلية إلى أبيه .

ولكن إذا سلمنا بأن هناك دوافع جنسية بين الطفل وأمه فإننا يجب ألا ننسى ما هو أهم منها ، وأحرى بأن يكون الميزان الذى توزن به

السكينة أو الاضطراب النفسى طوال العمر . ذلك أن تعلق الطفل بأمه والتصاقه بها ؛ أيام الطفولة ؛ يجعله يحس نحوها بأنها مركز أمنه وطمأنينته وهى موئله ومكان استغاثته عند الخوف . ومركب أوديب فى هذا المعنى هو مركب الاحتماء من الخوف والخطر أكثر مما هو مركب الاشتهاء الجنسى . . .

والأم هنا تمثل المجتمع ؛ فإذا كانت قد أسرفت فى حماية طفلها فإنه ينشأ عاجزاً كارهاً للاقتحام ينشد لسلامة مهما كانت وضيعة . . وإذا كانت قد أسرفت فى تقييد حريته فإنه ينشأ خائفاً ضائقاً بالصعوبات والأخطار الخفية . وهو ينشد من يحميه أو ما يحميه فى شخص كالزوجة أو الرئيس ؛ أو فى عمل مستقر قد يكون قليل الكسب .

ولما كانت حياتنا الاجتماعية الاقتصادية حافلة على الدوام بالأخطار ؛ غير مطمئنة إلى المستقبل ، يكثر فيها الإفلاس والتعطل وخوف المرض والموت والقلق على الوظيفة أو الأبناء . وخوف الهزيمة فى الحب أو المباراة الاقتصادية العامة ؛ فإن القلق الذى يصيبنا من جميع هذه الحالات يتخذ الأسلوب الذى نشأ عليه مع الأم أيام الطفولة .

ولكن إذا كانت علاقة الأم بطفلها أو مركب أوديب ؛ قائمة على التوسعة للطفل فى مجال الحرية ؛ بحيث يتعود الجراءة ويقدم ويخترع اختراعاته الصغيرة . فإنه عندما يكبر يستطيع تحمل الصعوبات ، بل يضحك من الأخطار ولا يخشى عليه من نيوروز أو سيكوز ؛ أى من مرض عصبى أو عقلى .

ولست أجد فى كل هذا تناقضاً مع بافلوف الذى يرد عاداتنا الذهنية وعقائدنا وأفكارنا إلى تلك الرجوع الانعكاسية الأولى أيام الطفولة ثم ما ينشأ منها من رجوع مكيفة أى معدولة عن أصلها . ويكاد الفرق بين

فرويد وبافلوف يكون سيمائيًّا أو لغويًّا فى اختيار الكلمة وأسلوب التعبير .

ولكنى لست فرويديًّا من حيث إيمان فرويد بأن لنا غرائز ثابتة موروثة فى الرغبة فى العدوان أو الموت أو فى هذا الاتجاه الأخلاقى أو نحو ذلك ، فقد وصلت بدراساتى الاقتصادية إلى أن التربية وحدها : العائلية ، والاجتماعية ، هى التى تعين لنا عواطفنا من حب وكراهية واستلطاف . أو اشمئزاز وكفر ، أو إيمان وخضوع أو تمرد . وظنى أن هذا هو الفرق الأساسى بين فرويد وبافلوف : الأول يكاد يكون غريزيًّا مائة فى المائة والثانى يكاد يكون اجتماعيًّا مائة فى المائة .

وبكلمة أخرى أقول إن المجتمع يفرض لنا أسلوباً للارتزاق ، فيعين لنا بهذا الأسلوب ووسائله العواطف التى تسود نفوسنا من غيرة وتحاسد إلى تعاون وحب ؛ ومن مباراة تهدف إلى التفوق وتحمل فى غضونها ما يلابسها من إحساسات القلق ، وطمأنينة تجمعنا فى وجهة موحدة نحو خير المجموع . وعواطفنا التى تحرك نشاطنا هى جميعها ثمرة هذا النظام الارتزاقى الذى يرتب لنا معانى الضعة والشرف والخسة والسمو . ولن نستطيع أن نفهم معنى الا نتحار أو الثأر والأمانة ، أو الخيانة الزوجية ، أو قوانين الزواج أو الطلاق ، إلا إذا رجعنا إلى تلك النظم الأصلية التى يرتزق بها الناس من صناعة أو زراعة . ونحو ذلك .

وأنا أعد نفسى ممتازاً على فرويد من هذه الناحية التى أعجب من إهماله لها . وهو إهمال خطير ، لأن سيكلوجية فرويد الغريزية تعد راكدة جامدة إلا من حيث إنها تدعو إلى التفريج كى يقل الكظم . ولكن هذه السيكلوجية الاجتماعية التى تعلل العواطف بنظام المجتمع تعد متحركة ارتقائية لأنها تنشد ترقية المجتمع لإيجاد العواطف البارة السارة . بل إن العلاقات الجنسية نفسها ، على ماتنبنى عليه من أساس طبيعى ، تتكيف بالمجتمع بحيث تكون سوية أو شاذة . لأن الشذوذ الجنسى العدوانى مثلا هو

اجتماعى فى أصله ؛ أو إذا كان هناك أساس طبيعى له فإن هذا الأساس لا يعلل أكثر من أربعة فى المائة من الاتجاه العدوانى . وكذلك الشأن فى مركز المرأة العاطفى من الرجل . فإنها كما أثبتت « مارجريت ميد» «ليست على الدوام مطلوبة مغرية مزدانة كما هو الشأن فى مجتمعنا . إذ هى قد تكون عكس ذلك كله .

وقد يزدان الرجل ويطلب من المرأة أن تغازله وتحاول استرضاءه واجتذابه . ومع أن المدارس « التحليلية » قد تعددت واختلفت أساليبها فإنها جميعها ترجع إلى فرويد . ولا يكاد يوجد فيها إلا القليل الذى أوجده أدلر بما أسماه « مركب النقص » .

فرويد يعلق النشاط الذهنى والاجتماعى والفنى والدينى إلى « اللبيد» الجنسى الذى نشأ من الكظم السابق أيام الطفولة بحب الأم وكراهة الأب ، أى بمركب أوديب .

وأدلر يعلق هذا النشاط ، أو النشاط الشخصى على الأقل ، بالنقص الكامن الذى نشأ فى الطفولة ثم حرك عواطف تحفز وتوجه سائر العمر .

و « يونج» يعلق هذا النشاط إلى الطاقة الطبيعية ، أى الغرائز الأولى ، وأيضاً إلى تراث العقائد والممارسات القديمة وكلمات اللغة والعادات البدائية كالسحر القديم . وهو يرى أن هذا التراث يحيا فى الكامنة من وقت لآخر .

لنفرض أن هناك كاتباً ثائراً نحاول أن نحلل ثورته التى ينشد منها الديمقراطية أو مكافحة الاستبداد . فإن من الواضح أن الناس ليسوا سواء فى تحمل المظالم أو فى الرغبة الحارة فى التغيير الاجتماعى ، فلماذا اختص هذا الكاتب بهذه الدعوة ؟

فعند فرويد أن مرجع ثورته « مركب أوديب » لأنه كان يكره أباه وخاصة إذا كان هذا الأب قد أساء إليه فى طفولته واستبد به ، وهو حين يكبر يضع الوزير أو الأمير المستبد مكان الأب ويوجه إليه كراهيته وكفاحه .

وعند أدلر أن هذا الكاتب كان أيام طفولته يجد نقصاً فى جسمه ، أو شوهة فى وجهه . وكان الخجل يحز فيه ويوجهه نحو التمرد على الرؤساء الذين أخذوا مكان المجتمع الذي كان يعيره أو يقف منـــه موقف التعيير أيام طفولته .

وعند يونج أن هذا الكاتب ورث روح البطولة وإحساس العدل من الثقافة البشرية العامة منذ نشأت الحضارات الأولى . فهو يمثل فى كفاحه دعوة دينية ونهضة شعبية كثيراً ما تكررت فى التاريخ البشرى . ومن هنا قيمة الأحلام : وهى قيمة كبيرة عند فرويد ولكنها أكبر عند يونج ، ولا تكاد تكون لها عبرة كبيرة عند أدلر . وإنما يكبر يونج من قيمة الأحلام لأنها تبرز هذه الثقافات القديمة وقت النوم . فنحن نحلم كما لو كنا نعيش قبل عشرين ألف أو عشرة آلاف سنة ؛ أى نعيش فى بيئة الوحوش المفترسة والغابات المظلمة والكهوف الصخرية والفزع والفرار مع الاستعانة بما يشبه قواعد السحر القديم والكيمياء المنقرضة .

والحق أن فى الأحلام شيئاً كثيراً من هذا . وليس لنا الحق فى أن نرفض وراثة الأفكار أكثر مما لنا الحق فى أن نرفض وراثة الأعضاء . فإننا فى أيامنا ننزع إلى الإيمان بوراثة العادة ، كما كان يقول لامارك ، التى تعين وظيفة للعضو فى الجسم ، كما نرى فى طول العنق عند الزرافة أو الجمل . إذ أن هذا الطول نتيجة لمد العنق كى يصل كل منهما إلى الأعشاب . وكذلك الشأن فى الأفكار . فإنها بالعادة والتكرار تورث

وتعود كما لو كانت غرائز . وهذا الحلم العام الذى لا يكاد يخلو منه طفل . وهو السقوط . برهان على أن خوف السقوط من الشجر ؛ وهو كارثة كان يجب على كل أسلافنا أن يتقوها بألا يستسلموا للنوم العميق . هذا الحلم التحذيرى يدلنا ببقائه عندنا على أننا ورث الأفكار .

لقد كانت دراسة فرويد عندى بمثابة الخميرة التى تفتشت فى ذهنى ؛ وكانت علة العشرات بل المئات من الرجوع الذهنية . فإنه هو الذى كان يحفزنى : من حيث أدرى أو لا أدرى . إلى دراسة المجتمع وكيف يجب أن نتقى الإجرام أو نعين أصول التربية أو نتقى الحرب أو نفكر فى الشئون الجنسية أو نقدر الثقافة أو نصف الشخصية الحسنة أو نحدد المعنى من الذكاء أو البلادة .

وقد ألفت كتابى « أسرار النفس » فى عام ١٩٢٧ وأنا متأثر بفرويد . ولذلك لا يتجاوز موضوعه « العقل الباطن » أى الكامنة أو العقل الكامن ولكنى عندما ألفت كتابى الآخر « عقلى وعقلك » فى عام ١٩٤٧ كنت قد تجاوزت فرويد إلى غيره من السيكلوجيين ، وإلى شىء من الاستقلال الفكرى الذى لم أكن أجرؤ عليه فى عام ١٩٢٧ .

والعالم المتمدن أسعد حالا وأهنأ فى عيشه بما حظى من التوجيه السيكاوجى الجديد على يد فرويد وتلاميذه . فإن فرويد حرر الأطفال من التعسة والخوف وأبرز الأهمية الكبرى للحياة الطفلية الخافتة فى مستقبل العمر أيام الشباب والكهولة ، لأنه أوضح لنا كيف تعيش المركبات وكيف تنشأ الصعوبات التى ربما تؤدى إلى خيبة الشاب أو الفتاة أو إلى انتحار أحدهما بسبب الأخطاء التى تعرضنا لها أيام طفولتيهما ماضيا من أحد الأبوين . كما أنه أوضح لنا فداحة النتائج التى تنشأ من الكظم الجنسى . وقد عاد كثيرون ممن ذهب وجدانهم واضمحل تعقلهم لتغلب العقل

الكامن عليهم ، عادوا من ظلام الجنون إلى نور العقل بفضل التحليل النفسى .

وإنه لمما يؤلم جميع الذين انتفعوا بعبقرية هذا السيكلوجى العظيم أن يعرفوا أنه لم يستمتع بشىء من الرخاء الذى كان يمكن أن يخفف عنه الشيخوخة . فإنه عقب الحرب الكبرى الأولى خسر جميع ما ادخره من المال بسبب التضخم فى النقد . وفى الحرب الكبرى الثانية طاردته النازية حتى مات فى لندن بعيداً عن بيته ومدينته .

وتراثنا من فرويد هو « التحليل النفسى » وهو لا يمكن أن يموت وقصارى ما سوف يحدث أن تتغير الأسماء والعبارات ، لأن صميم التحليل النفسى هو الانتقال من الفكرة الكامنة المتسلطة بالعاطفة إلى الوجدان ، أى إلى الدراية . وحتى مع اتجاه السيكلوجية فى أيامنا إلى التجربة ، وهو اتجاه عظيم القيمة جداً ، فإن التحليل سيبقى مفتوحاً للنفس البشرية تفهم منه خباياها وتتعمق أسسها .

وقد ولد فرويد من أبوين يهوديين فى عام ١٨٥٦ ومات فى عام ١٩٤٠ منفياً مطارداً من وطنه ڤينا عاصمة النمسا . فإن النازيين الذين استولوا على النمسا طاردوا اليهود ، وكان فرويد على الرغم من إلحاده معدوداً بين اليهود .

وحفلت عواصم أوربا فيما بين عامى ١٩٠٠ و ١٩٤٠ بالمناقشات الحامية بشأن التحليل النفسى كما حفلت بالانشقاقات والخصومات ، مما دل على أن السيكلوجية الفرويدية كانت ولا تزال فى طور المذاهب . ولا ينقص هذا من فضل فرويد .

ولما نزل فى هذا الطور لم نستقر . ولكن فرويد كان ، كما قلت ، بمثابة الخميرة التى بعثت سلسلة من الأفكار لما تنته حلقاتها . وهذا هو أكبر فضله فى تربيتى .